مناقشات فكرية معاصرة

لمنكري السنة النبوية المطهرة

د/ هيثم زكريا محمد أبو طالب

٢٠٢٤م

مناقشات فكرية معاصرة لمنكري السنة النبوية المطهرة	**إعداد: د. هيثم زكريا محمد أبو طالب** **تصميم وتنسيق:** بدور فرج محمد إبراهيم **تدقيق لُغوي:** حبيبة محمود عادل عبدالفتاح **رقم الإيداع:٢٩٣٨٧ /٢٠٢٤م** **الترقيم الدولي:**٩٧٨-٩٧٧-٩٦٣٩-٠٥-٥ **الناشر:المبدعون العرب للنشر والتوزيع والمالتيميديا**

المدير العام: أحمد عبدالعزيز النجار

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طباعته أو نشره بدون موافقة خطية من دار النشر تعرض صاحبها للمساءلة القانونية، والمادة والآراء بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

مصر –الجيزة – العمرانية

٠٠٩٧١٥٠٩٢٦٣٥٤٥ –٠١٠٢١١٩١٨٠٩

almubadieun@gmail.com

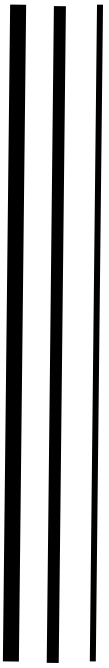

مناقشات فكرية معاصرة

لمنكري السنة النبوية المطهرة

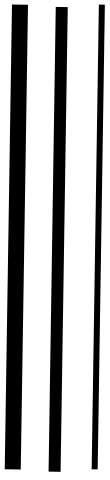

إلى أمة العزة،،

التي أعزها الله بهذا الدين فقال تعالى: {ولله العزة ولرسـوله وللمؤمنين}، لا يليق بنا أن نُظهر غير العزة بالله وبدينه، وعلينا أن نفتخر أن الله اختارنا لنكون {خير أمة أخرجت للناس}، وأنه رضي بشـهادتنا وحَكَم بوسـطيتنا {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَـطًا لِّتَكُونُوا شُـهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}، واختار لغتنا العربية لينزل بها كلامه ورسـالته الخاتمة للعالمين {بلسـان عربي مبين}، ويسرـ لنا هذا الكلام لنتذكر به {ولقد يسرـنا القرآن للذكر}، وبقي لنا أن نسـتمسـك بهذا الدين، وأن نعتصـم بحبل الله أجمعين، وبسـنة نبيه عليه صـلوات رب العالمين، وأن ننبذ الفرقة فما تفرقت جماعة إلا وذهب ريحها {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}، ولا نيأس من روح الله، وأن نثق في وعده المبين الذي وعده لعباده المؤمنين {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُـ الْمُؤْمِنِينَ}.

ونسـأل الله أن يعيد لهذه الأمة أمجادها ودورها الفعّال في حماية الحق والمستضعفين.

مقدمة:

بسم الله والحمد لله الذي خلق خلقه أطوارًا، وأرسل الرسل إلى المكلفين إعذارًا منه وإنذارًا، فأتمّ بهم على من اتبع سبيلهم نعمته السابغة، وأقام بهم على من خالف منهاجهم حجته البالغة، فنصب الدليل وأنار السبيل، وأزاح العلل وقطع المعاذير، وأقام الحجة وأوضح المحجة، وقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ...﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وعن رسله قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ ...﴾ [النساء: ١٦٥].

أحمده سبحانه وهو أهل الحمد والثناء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وصفيّه من خلقه وحجته على عباده، أرسله بالهدى ودين الحق بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وأنعم به على أهل الأرض نعمة لا يستطيعون لها شكورًا، فأمدّه بملائكته المقربين، وأيّده بنصره وبالمؤمنين، وأنزل عليه كتابه المبين، الفارق بين الهدى والضلال، والغي والرشاد، والشك واليقين، فشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وأقسم بحياته في كتابه المبين.

فصلاة وسلامًا دائمين عليه وعلى آله وصحبه الغر الميامين.

أما بعد؛ فقد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣]، فهذه سنة الله في الأرض أن يكون للأنبياء –بل وللحق كله– أعداء، فالضد لا يُظهر حسنه إلا الضد، ونحن هنا في دار ابتلاء، والفتن فيها مقدرة علينا حتى يتبين المؤمن الحق من المنافق الذي في قلبه مرض، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن

قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، وقال بعدها ببضعة آيات: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت: ١١].

واتباع الرسول والاستجابة له ولأوامره هو أحد هذه الفتن كما قال عز وجل في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٤-٢٥]، كما أن الانصراف عنه علامة على مرض في القلب كما قال تعالى في خواتيم سورة التوبة: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴿١٢٧﴾ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٦-١٢٩].

والتعرض لهدي النبي ﷺ هو من الفتن التي انتشرت في هذا الزمان وإن كان هذا الأمر ليس حديثًا، بل له جذور تاريخية تعود للقرون الهجرية الأولى، ولكن أعيد صياغتها مؤخرًا وتوفير بيئة لتنمو فيها، ومنابر وأبواق إعلامية بما يكفل لها الانتشار بين المجتمعات الإسلامية حتى ينشغل المسلمون بها عما يُحاك لهم، ولا تتوحد صفوفهم تحت راية واحدة أو يلتفتوا لما يمكر الأعداء بهم.

ومن الدوافع لكتابة هذا الكتاب الامتثال لهدي النبي ﷺ في الرد على مكر الأعداء، ففي غزوة أُحد يُروى أنّ أبا سفيان قال: «أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ، قالَ النَّبيُّ ﷺ: أَلَا تُجِيبُوا له؟ قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، ما نَقُولُ؟ قالَ: قُولوا: اللَّهُ أَعْلَى وأَجَلُّ، قالَ:

إنَّ لَنَا العُزَّى ولَا عُزَّى لَكُمْ. فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: أَلَا تُجِيبُوا له؟ قالَ: قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، ما نَقُولُ؟ قالَ: قُولوا: اللَّهُ مَوْلَانَا، ولَا مَوْلَى لَكُمْ». [رواه البخاري 3039].

ونصرة النبي ﷺ واجبة على كل مسلم؛ ولهذا من واجبنا أن نرد على هؤلاء، وألا ندع المجال لهم ليفتنوا الناس عن دين الله، وهذا نوعٌ من أنواع الجهاد كما قال تعالى: ﴿... وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾ [الفرقان: ٥٢]، ونحن نستحضر قول الله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [العنكبوت: ٦].

ولقد تعمدتُ أن أضع في كل فقرة استشهادًا بآية من آيات الله، بل وفي المواضيع المهمة حاولت أن أضع في كل سطر استشهادًا بآية من القرآن الكريم، حتى يعلم منكر السنة أنّه قبل أن يُنكر سنة رسول الله ﷺ فإنه ينكر كلام الله عز وجل، وأن دعوى (إسلام بقرآن فقط دون سنة) هي دعوى باطلة، تعارض القرآن نفسه، وليعلم من كان صادقًا في ادعائه أنّه يتبع القرآن، أنّه وجب عليه اتباع سنة نبينا ﷺ، وإلا فهو مخالف لأوامر القرآن.

ولقد ناقشت فئات كثيرة من منكري السنة النبوية بمختلف درجات الإنكار، من الإنكار الكامل للسنة النبوية، مرورًا بأصحاب الشكوك في موثوقية نقل السنة، وحتى من لديهم اعتراضات على بعض الأحاديث والروايات الموجودة في كتب الأحاديث، وقررتُ أن أجمع أشهر الاعتراضات الفكرية التي يثيرونها والردود عليها في كتاب حتى يستفيد منه من هو في تماسٍ مع مثيري مثل هذه الاعتراضات، **وإن كنت أؤكد على أن اجتناب مواطن الفتن والشبهات هو الأساس**، والفَطِن هو من يحتاط لدينه، وليس منّا من هو بمأمن من الزلل، لذلك لا أنصح أي أحد أن يذهب لمثيري الشبهات الفكرية كما قال تعالى: {وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره}، ولم أكتب هذا الكتاب لأشجع الناس على الذهاب لأمثال هؤلاء؛ لأنه –للأسف– حين يستحوذ الهوى على المرء فلن

يعجبه إلا رأيه، وستأخذه العزة بالإثم {ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا}؛ وإنما كتبته في الأساس ليكون موضحًا لمن هو في تواصل مع من تأثر بهذه الشبهات، وقد كنت في هذا الموقف منذ سنوات، كنت أسمع من بعض من حولي شبهات تُثار على السنة، وليس لدي العلم الكافي الذي يوضح لي مواطن الخلل والفساد في هذه الشبهات، لذا أحببت أن أسجل مواطن فسادها لمن التبس عليه الأمر، وأما عن نقاش هؤلاء فيحتاج لدراسات متخصصة، وليس لأي أحد تأخذه الغيرة والحمية على دينه أن يظن أنه قادر على تحمل نقاشاتهم التي قد تستمر لساعات دون فائدة تُذكر، بل بالعكس إن لم يكن لديه مادة علمية كافية بالعلوم الشرعية وبكتاب الله، فقد يتأثر بمثل هذه الأفكار دون أن يشعر أو يتكون لديه عقيدة خاطئة.

والكتاب به مباحث ومواضيع متفرقة لأشهر ما يثيرونه من أفكار، وبإمكان القارئ أن يقرأها منفصلة إن أراد ذلك ليعرف وجوه فسادها والأدلة على بطلانها.

هذا وما كان من توفيق فيه فهو من الله، وما كان فيه من تقصير أو سهو أو خطأ فهو من نفسي والشيطان، وأسأل الله عفوه وعافيته.

والله الموفق والمستعان

كتبه/ د.هيثم زكريا محمد أبو طالب

عام ١٤٤٦ هجري

الفصل الأول

حجية السنة

المبحث الأول

أدلة على حجية السنة

النوع الأول من الأدلة على حجية السنة هو الأدلة العقلية:

أولاً: الرسول ﷺ هو حلقة الوصل بيننا وبين الله عز وجل، وهو من يأتيه الوحي؛ لذا فإن طاعته طاعة لله عز وجل كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾ [النساء: ٨٠]، وقال أيضًا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ...﴾ [النساء: ٦٤]؛ فالعلة من إرسال الله للرسل هي أن يتبعهم الناس، وهذا ما جاء في العديد من المواضع التي تأمر مباشرة بطاعة الرسول، أو التي جعلت اتباع الرسول شرطًا من شروط الإيمان، أو التي تحذر من مخالفة أمره ﷺ ومن عاقبة ذلك.

ثانيًا: الرسول ﷺ هو من يرشدنا لصراط الله المستقيم، صراط الله المستقيم الذي جعله الله أول دعاء في فاتحة كتابه الكريم، فقال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، هو صراط واحد وما عداه باطل كما أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز فقال في سورة الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهذا الصراط خير من يبينه لنا ويهدينا إليه هو رسول الله ﷺ الذي يأتيه الوحي من الله، وهذا ما أكّده قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ

أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]، وهذا ما أكّده أيضًا في سورة المؤمنون: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾﴾ [المؤمنون: ٧٣]، **وقوله أيضًا**: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

لذا فالرسول ﷺ هو قائدنا في هذا السبيل والصراط المستقيم، ونحن نسير متبعين خطاه وهداه مبصرين الطريق الذي يوصلنا لرضا الله عز وجل، وهذه أسمى أمنية نسأل الله أن ندركها، وأن يوفقنا لها فهو ولي ذلك والقادر عليه.

ثالثًا: دين الله الذي ارتضاه لنا دين كامل لا ينقصه شيء، قال تعالى: ﴿... ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ...﴾ [المائدة: ٣]، ومن زعم أن الدين ينقصه شيء فقد كذّب الله عز وجل، وترك سنة الرسول ﷺ، والاعتماد على أن كتاب الله نص مفتوح لأي أحد يستخرج منه الأحكام والتشريعات كما يحلو له ينتج عنه دين خاص بكل شخص وبفهمه هو، فمعلوم أن الأفهام متباينة والعقول متفاوتة في إدراكها واستيعابها للنص، وهذا ليس اتباعًا لكتاب الله ولا اتباعًا للحق، وإنما اتباع لهوى النفس وما تميل له من فهم للأحكام والتشريعات، وقد ذم الله عز وجل اتباع الهوى في كثير من الآيات فقال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الروم: ٢٩]، وقال أيضًا: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال أيضًا: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣]، والحق أبدًا ما يكون باتباع الهوى، بل ما ينتج عن اتباع الهوى هو فساد عظيم، وهذا ما قاله الحق سبحانه صراحة في سورة

المؤمنون: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ ...﴾ [المؤمنون: ٧١].

النوع الثاني من الأدلة على حجية السنة هو الأدلة النقلية:

وما جاء في كتاب الله صراحة إما للأمر بطاعة الرسول ﷺ، أو جعل طاعته شرطًا وعلامة للإيمان، أو تحذيرًا من مخالفة أوامره ومشاقته ﷺ.

أولًا: من الآيات التي تأمر مباشرة بطاعة الرسول ﷺ:

* قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران: ١٣٢].
* ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٢﴾ [التغابن: ١٢].
* ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤﴾ [النور: ٥٤]
* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾ [الأنفال: ٢٠].
* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [الأنفال: ٢٤].
* ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦].
* ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

ثانيًا: من الآيات التي جعلت طاعة الرسول ﷺ من شروط الإيمان بالله عز وجل، وعلامة من علاماته:

* قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

* ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

* ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ ....﴾ [النور: ٦٢].

* ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

* ﴿... فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ١]

ثالثًا: من الآيات التي تحذر من مخالفة الرسول ﷺ:

* ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

* ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال: ١٣].

* ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة: ٦٣].

* ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ [النور: ٦٣].

* ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النساء: ٤١-٤٢].

* ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ ...﴾ [التوبة: ١٢٠].

وكل هذه الآيات وغيرها من كتاب الله توضح تمامًا وجوب اتباع الرسول ﷺ، وعدم مخالفة أوامره أو الحيد عن طريقه.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم.

١. تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ **وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ** [النساء ١٣]
وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ

٢. **وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ** وَيَخْشَ ٱللَّهَ [النور ٥٢]
وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ

٣. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ [الأحزاب ٧١]
ذُنُوبَكُمْ ۗ **وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ** فَقَدْ
فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا

٤. لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى [الفتح ١٧]
ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا
أَلِيمًا

المبحث الثاني

اعتراضات فكرية على حجية السنة

تمهيد

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [هود: ١٨-٢٠].

خرج لنا من يجادل في حجية السنة، ويعترض على وجوب طاعة الرسول ﷺ، وذلك حتى ينفرد بنصوص كتاب الله ليفسره وفق هواه، وهذا الأمر لا يؤدي إلا لشيء واحد، وهو اختراع دين غير دين الإسلام، بل ودين خاص لكل شخص وفق فهمه وهواه وما يراه هو، وهذا ما أخبر عنه الله عز وجل فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠]، وهؤلاء حذر الله عز وجل من اتباعهم والانقياد وراء أهوائهم فقال تعالى: ﴿... وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

وما أقبح ما يفعله منكر السنة، فهو يعطي لنفسه حقًا سلبه من رسول الله ﷺ، ألا وهو تبيين الأحكام والتشريعات التي فرضها الله عز وجل!! هؤلاء يظنون أن فهم أحدهم خير من فهم رسول الله ﷺ!! وهو الذي يأتيه الوحي من السماء، وزكاه ربه فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم: ٥]، فرسولنا ﷺ علّمه شديد القوى،

ويأتيه الوحي من العزيز الحكيم، وأنت يا من تُنكر سنته من علمك؟ ومن يوحي إليك؟!

اسمع لقوله تعالى في سورة الأنعام لتعرف من يوحي إليك: ﴿... وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]، بل وكيف يكون الدين اكتمل كما قال تعالى في سورة المائدة: ﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ...﴾ [المائدة: ٣] ولا نعرف الكثير من تفاصيل الأحكام والتشريعات التي فرضها علينا عز وجل؟! أصحاب هذا الادعاء يكذّبون الله عز وجل قبل أن ينكروا سنة نبيه ﷺ، ونسأل الله العافية.

وسنستعرض سويًا أشهر الاعتراضات المعاصرة التي ناقشناها مع منكري السنة النبوية، وكيف أنها باطلة، ووجوه بطلانها.

الاعتراض الأول

طاعة الرسول الواردة في القرآن أي طاعة الرسالة!

قاعدة عامة عند أهل الأهواء حين تسألهم عن دليلهم في أفكارهم التي يعرضونها واستنتاجاتهم لا تسمع منهم غير تخيلات وافتراضات من عندهم، ولا يُحضرون دليلًا واحدًا صحيحًا ثابتًا في كتاب الله ينتج عنه الادعاءات التي يقولونها، ومعلوم أن المناقشة تكون للدليل أو لطريقة الاستدلال، وهؤلاء في كثير من ادعاءاتهم لا يملكون دليلًا أو طريقة استدلالٍ صحيحة.

وهذا الادعاء تحديدًا لم أسمع له أي دليل عند أي أحد إلا افتراضات وآراء شخصية وتفسيرات من عنده، فكل ما فعله فرض الفرضية، ثم أخذ يلوي في الآيات لتوافق فرضيته، وهنا مثال على ذلك: اعترض الكثير من منكري السنة على لفظ ورد صراحة في كتاب الله وهو {وأطيعوا الرسول} بافتراض من تخيلاتهم، وهو أن المقصود من الرسول أي الرسالة، مع العلم لا يوجد نص يقيد الطاعة في الرسالة أو حتى يخصصها ويوضح أنها طاعة الرسالة؛ لأنه معلوم أن العديد من الآيات ذكرت الرسول بشخصه، فما الذي يجعل القرآن يذكر الرسول ويريد شخص الرسول في مواضع ثم يأتي في مواضع أخرى ويريد الرسالة؟!

ولو تنزلنا للجدال سنبين الأدلة التي تثبت أن هذا الادعاء لا يمكن القبول به لا شكلًا ولا موضوعًا.

النوع الأول من الأدلة الأدلة العقلية:

أولًا: كيف نعبد الله كما يريد؟

ذكر لنا الله عز وجل العلة والسبب التي خلقنا من أجلها، وهي عبادته سبحانه فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهذه العبادة تتضمن نسك وأفعال وحركات كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧﴾ [الحج: ٧٧]، هذه الأفعال كالركوع والسجود والعبادات الأفضل أن تراها أمامك لا أن تقرأها سردًا في كتاب، نفس الأمر لو جاز لنا التشبيه في تعلم رياضة كالسباحة اقرأ ما شئت عنها من كتب، لكن لن تغنيك عن نزول الماء ومعك أحد يعلمك إياها؛ ولهذا انظر لدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام في سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ [البقرة: ١٢٨]، انظر لفطنته عليه السلام: {وأرنا مناسكنا} المناسك تحتاج لأن نراها تطبق عمليًا حتى نتبع هذا التطبيق دون أن نزيغ أو يخترع كل منا مثلًا صفة للركوع أو صفة للسجود أو صفة للصلاة، وهذا الأمر بالمناسبة سمعناه من الكثير من منكري السنة التخبط في ماهية الصلاة وأوقاتها، ومنهم من لا يعترف بأن بها أفعالًا حركية، وكل هذا التخبط ببساطة لأنهم نزعوا من رسول الله وجوب الاتباع، ولكن هم هكذا سقطوا في معضلة كبيرة وهي: كيف يكون الدين كاملًا ولم يبين لنا هذه الشعائر؟! بل وهذه من أظهر شعائر هذا الدين كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١﴾ [التوبة: ١١].

فالله عز وجل جعل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من الشعائر البارزة في المسلمين، ثم يأتي من يقول لم يحدد ما هي إقامة الصلاة ولا مواقيتها ولا مقدار الزكاة والذي وصفه الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤﴾ [المعارج: ٢٤]، وقال عنه أيضًا: ﴿... كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ ...﴾ [الأنعام: ١٤١]، فالله عز وجل وصف بأن هناك حق لابد من دفعه من الأموال والثمرات، ومعلوم أن الحق واحد وثابت وماعداه باطل كما قال تعالى: ﴿... فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ ...﴾ [يونس: ٣٢]، أي أننا إذا لم نعرف الحق هكذا سقطنا في الضلال، فهل يعقل أن يتركنا الله عز وجل دون أن يخبرنا ما هو هذا الحق، ثم يخبرنا أنه أكمل لنا

الدين؟! حاشاه سبحانه لم يترك لنا صغيرة ولا كبيرة إلا وبيّنها لنا سبحانه سواء في كتابه أو مع رسوله الكريم صلوات ربي وتسليمه عليه؛ ولهذا هذه من أجلّ النعم علينا كما وصفها سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فوظيفة الرسول ﷺ ليست فقط التلاوة لآيات الله وتبليغها، وإنما أيضًا تعليم الأمة الشعائر والمناسك، ومن يعترض على هذا الأمر ببساطة هو مكذب لكلام الله.

ثانيًا: وجوب طاعة الرسول ﷺ هذا أمر متواتر، وأجمعت عليه سائر الأمة طوال الأربعة عشر قرنًا الماضية، وفي سائر بقاع الأرض، فاذهب وانظر للمسلمين في بلاد عدد المسلمين فيها قليل ومع ذلك ستجد لهم مسجدًا، ويحرصون على معرفة الصلاة والزكاة وتعاليم الرسول ﷺ، فكيف يكون هؤلاء على خطأ في فهم وجوب طاعة الرسول، وأنت جئت الآن بعد كل هذا الزمان لتصحح المسار؟! وهل يعقل أن يترك الله عز وجل الأمة كل هذا في ضلال وهو سبحانه من زكاها ورضي بشهادتها على الأمم فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ...﴾ [البقرة: ١٤٣]؟! وكذلك أمرنا سبحانه باتباع هذا الإجماع، وألا نحيد عن سبيل المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

والأدهى أنك تتبع إجماع الأمة في أن ما بين أيدينا من مصحف مدون ومجموع هو كلام الله الذي نزل على رسوله كاملًا ولا ينقصه شيء، وتبني دينك كاملًا على هذا المصحف، ولا نملك دليلًا على هذا الادعاء إلا إجماع الأمة، وتواتر هذا الإجماع وتلقي الأمة له بالقبول والتصديق طوال كل هذه السنوات، فلماذا اتبعت إجماعهم في أمر ورددته في أمر آخر؟ وما المعيار الذي اعتمدته للقبول والرد؟

ما الذي يجعلك تقبل دليلًا على صحة أمر وترد نفس الدليل على أمر آخر؟ إما أن تعتبر الدليل باطلًا وترد الأمرين أو صحيحًا وتقبل الأمرين.

ثالثًا: لا مانع عقلًا من وجوب اتباع النبي ﷺ، فمن يدعي أنه بشر ويخطئ فهذا قطعًا لن يكون في تشريعات الله وأحكامه، وإلا فالله عز وجل لن يتركه يخطئ في تشريع يخص دين الله، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]، فطالما أن الله عز وجل أخبر أنه لن يترك نبيه ﷺ يتقول عليه، والرسول ﷺ عاش حتى أكمل لنا الدين، بل والله عز وجل عاتبه في أمر بسيط كالعبوس في وجه شخص أعمى لن يرى هذا العبوس أساسًا، فهل كان سيتركه يقول أحكامًا وتشريعاتٍ وتفصيلاتٍ في دين الله لا ترضي الله عز وجل؟! هذا أمر لا يمكن قبوله قطعًا.

النوع الثاني من الأدلة الأدلة النقلية:

كتاب الله به العديد من الآيات التي تبين أن الرسل بشر، ولذلك فطاعة الرسول يقصد بها طاعة شخصه، وهذا مما كان يجعل بعض الناس لا يؤمنون بدعوتهم، أنهم بشر، وهناك آيات توضح أن الرسول ﷺ له نفس من أنفسنا، وفي مواطن عديدة بعد أن ذكر الله عز وجل طاعة الرسول توجه بالكلام بكاف الخطاب للرسول ﷺ، ليبين أن المقصود بالطاعة هو شخص الرسول ﷺ.

أولًا: الآيات التي تبين أن الرسل بشر قوله تعالى:

* ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

* ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَواْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ [يوسف: ١٠٩].

* ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾ [الأنبياء: ٧].

* ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤﴾ [الإسراء: ٩٤].

* ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨﴾ [الرعد: ٣٨].

* ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾ [الفرقان: ٧].

ثانيًا: ومن الآيات التي توضح أن الرسول ﷺ له نفس، وهو شخص مثلنا قوله تعالى:

* ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

* ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤].

* ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ...﴾ [التوبة: ١٢٠].

* ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤﴾ [النور: ٥٤].

ثالثًا: من الآيات التي ذكرت فيها طاعة الرسول، وانتقلت بالكلام بكاف الخطاب لتبين أن الرسول المقصود بالطاعة هو شخص الرسول ﷺ قوله تعالى:

* ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١]، وهذه الآية لعلها من أوضح الآيات أن الدعوة هي لاتباع شيئين هما: ما أنزل الله– والرسول، ثم جاء الصد عن شخص الرسول المخاطب بكاف الخطاب {عنك} وأكده بالمفعول المطلق {صدودًا}.

* ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠].

* ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

بعد كل هذه الآيات والأدلة من كتاب الله لا أعلم كيف فهم الذين يدعون أن قوله تعالى: {وأطيعوا الرسول} تعني طاعة الرسالة أو طاعته فيما يبلغ من الرسالة!!

هذا ونسأل الله أن يرينا الحق حقًا وأن يرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلا وأن يرزقنا اجتنابه، وألا يجعلنا نزيغ أو نضل عن سبيل الحق.

وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾
بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ
هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ
يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ
ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾
مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ
جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ
فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ
وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ
عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ
وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾
وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

الاعتراض الثاني

الفرق بين مقام النبوة والرسالة، ولا طاعة لنبي!

من عادة أهل الأهواء الاتيان بمقدمة لا تؤدي أبدًا للاستنتاج الذي خرجوا به، وهذا استدلال معيب ولا يؤخذ به، وهو عين ما ذم به بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢﴾ [البقرة: ٤٢]، وهنا في هذا الاعتراض دائمًا يبدأ منكر السنة بمقدمته: هل النبي مثل الرسول؟ وبعدها مباشرة تجده يقفز إلى قوله: والقرآن أمر بطاعة الرسول ولم يأمر بطاعة النبي، لذلك لا طاعة لنبي، ومن ثم يقفز للاعتراض الأول والطاعة للرسول بسبب الرسالة إذن فالطاعة للرسالة، كل هذه النواتج خرج بها بسبب مقدمة الفرق بين مقام النبوة ومقام الرسالة.

وقبل أن نبين فساد هذا الادعاء يجب توضيح أننا نطيع الرسول ﷺ في المقام الأول لأنه يأتيه الوحي من الله عز وجل، فكان هو السبيل الذي وصل لنا عن طريقه أوامره ونواهيه، فالله سبحانه واحد، وهو في النهاية مصدر الوحي، والرسول ﷺ مبلغ عنه.

والوحي كان منه كلامه عز وجل الذي تحدي به الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وهو القرآن الكريم، ومن الوحي بيان الأحكام والتشريعات التي وردت في كتاب الله، لكن أوكل للنبي ﷺ مهمة البيان بلفظه وفعله كما قال تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: ٤٤]، ونستطيع تقسيم أقوال وأفعال الرسول ﷺ في الدين إلى قسمين أساسيين:

القسم الأول: هو ما ابتدأه الرسول ﷺ بنفسه قبل أن يأتيه الوحي، والرسول له مطلق الحرية طالما لم ينزل الوحي يبين حكم الله، وكل ما قاله أو فعله ﷺ في الدين قبل أن يأتيه الوحي يندرج تحت خيارين اثنين:

- إما أن ينزل الوحي ويبين ما يرضي الله فيه، ولهذا نجد آيات في كتاب الله فيها عتاب له ﷺ مثل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤﴾ [عبس: ١-١٤]، ومثل مسألة أسرى بدر فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٦٩﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩]، وفي هذه الآيات بين لنا عز وجل كيف أن الرسول ﷺ كان حرًا في فعل ما يشاء طالما لم ينزل الحكم من الله عز وجل فقال: {لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.
- والخيار الثاني ألا ينزل الوحي فيكون هذا إقرار من الله عز وجل على أن هذا الفعل رضيه ولم يغضبه، وبالتالي لا حرج من اتباعه، بل ويستحب اتباعه تأسيًا واهتداء بالنبي ﷺ.

والقسم الثاني من أفعاله وأقواله ﷺ في الدين ما نزل بها وحي وهو بلغه مثل: كيفية ومواقيت الصلوات المفروضة، «روى جابر بن عبد الله أنَّ جبريلَ أتى النَّبيَّ ﷺ، يعلِّمُهُ مواقيتَ الصَّلاةِ فتقدَّمَ جبريلُ ورسولُ اللَّهِ ﷺ خلفَهُ، والنَّاسُ خلفَ رسولِ اللَّهِ ﷺ فصلَّى الظُّهرَ حينَ زالتِ الشَّمسُ، وأتاهُ حينَ كانَ الظِّلُّ مثلَ شَخصِهِ فصنعَ كما صنعَ، فتقدَّمَ جبريلُ ورسولُ اللَّهِ خَلفَهُ والنَّاسُ خلفَ رسولِ اللَّهِ فصلَّى العصرَ، ثمَّ أتاهُ حينَ وجبَتِ الشَّمسُ، فتقدَّمَ جبريلُ ورسولُ اللَّهِ خلفَهُ والنَّاسُ خَلفَ رسولِ اللَّهِ فصلَّى المغربَ، ثمَّ أتاهُ حينَ غابَ الشَّفَقُ، فتقدَّمَ جبريلُ ورسولُ اللَّهِ خلفَهُ والنَّاسُ خلفَ رسولِ اللَّهِ فصلَّى العشاءَ، ثمَّ أتاهُ حينَ انشَقَّ الفجرُ، فتقدَّمَ جبريلُ ورسولُ اللَّهِ

خلفَهُ والنَّاسُ خَلفَ رسولِ اللَّهِ فصلَّى الغداةَ، ثمَّ أتاهُ اليومَ الثَّانيَ حينَ كانَ ظلُّ الرَّجلِ مثلَ شَخصِهِ، فصنعَ مثلَ ما صنعَ بالأمسِ فصلَّى الظُّهرَ، ثمَّ أتاهُ حينَ كانَ ظلُّ الرَّجلِ مثلَ شَخصيهِ، فَصنعَ كما صنعَ بالأمسِ فصلَّى العصرَ، ثمَّ أتاهُ حينَ وجبتِ الشَّمسُ، فصنعَ كما صنَعَ بالأمسِ فصلَّى المغربَ، فنِمنا ثمَّ قُمنا ثمَّ نمنا ثمَّ قُمنا فأتاهُ فصنعَ كما صنَعَ بالأمسِ، فصلَّى العشاءَ ثمَّ أتاهُ حينَ امتدَّ الفجرُ وأصبحَ والنُّجومُ باديةٌ مشتبِكَةٌ، فصنعَ كما صنعَ بالأمسِ فصلَّى الغداةَ، ثمَّ قالَ ما بينَ هاتينِ الصَّلاتينِ وَقتٌ». [والحديث أخرجه النسائي (٥١٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٦٨/١) وابن خزيمة (1/182)].

والآن الرد على ادعاء أن هناك فرق بين مقام النبوة والرسالة من أوجه عديدة:

أولًا: زعمهم بالتفريق بين مقام النبوة والرسالة لم ينفِ وجود الوحي مع النبي ووجود الوحي مع الرسول ونحن مأمورون باتباع الوحي، فعن وجود الوحي مع النبي قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥]، وعن الأمر باتباع الوحي قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦﴾ [الأنعام: ١٠٦].

وطالما أن هناك وحي فنحن ملزمون باتباع الوحي، لأنها تعاليم الله عز وجل، والوحي هو حلقة الوصل بين الخالق عز وجل وبين عباده وأوامره لهم فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾ [الشورى: ٥١]، ونحن إن أعرضنا عن الوحي

نكون قد أعرضنا عن الله عز وجل وأوامره، وسنسأل بين يديه: جاءتكم الحجة فلم أعرضتم عنها ورددتموها؟ وعلينا أن نجهز الرد لهذا السؤال، ونسأل الله العافية.

ثانيًا: النبي مرسل أيضًا من الله حتى وإن لم يأت بشريعة جديدة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤﴾ [الأعراف: ٩٤]، فالنبي لم يستيقظ فجأة من نومه وقال هؤلاء القوم يحتاجون لنبي يذكرهم بالله، وأنا سأقوم بهذا الدور هذا طبعًا لا يكون، فمن كلفه بالنبوة هو الله عز وجل، وحمله برسالة لقومه، وقومه مأمورون بتنفيذ هذه الرسالة قطعًا، أنت تخيل لو جاءتك رسالة من مديرك في العمل أيًا كانت الرسالة بها تشريعات قديمة أو تشريعات جديدة وتجاهلتها فستعرض نفسك لعقوبة في العمل، ولله المثل الأعلى فما بالك برب العالمين ملك الملوك الخالق المهيمن العزيز الحكيم يرسل لنا رسالة مع النبي ثم نقول لا طاعة لنبي!! قطعًا نحن هكذا معرضون لأشد العقوبة من الله عز وجل بسبب هذا الإعراض، ونسأل الله العافية.

ثالثًا: يحق للنبي أن يأتي بتشريع (جديد) وليس فقط يحيي التشريعات القديمة، وهو أيضًا يبلغ عن ربه وليس فقط مقام الرسالة للتبليغ، هذه النقطة تحديدًا أكثر ما يرددها منكرو السنة أن النبي لا يأتي بتشريع جديد، ولكن القرآن أخبرنا في قصة مطولة ذكرت تقريبا تفصيليًا أن نبيًا أتى لقومه بتشريع (جديد) وكان عليهم اتباعه؛ لأنه وصف التشريع (كُتِب عليهم) وأنه أمر كتبه الله عليهم والمبلغ هو (نبيهم)، وهذا حدث في قصة نبي بني إسرائيل في عهد ملكهم طالوت، اسمع للقصة وكيف أحضر لهم نبيهم تكاليف من الله عز وجل (كُتِبت عليهم) وكيف أن تعيين طالوت كان (اصطفاء من الله) أي تكليف من الله عز وجل، والنبي هو من بلغه هذا التكليف الجديد، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا

وَأَبۡنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٤٧].

رابعًا: <u>القرآن ليس فقط وأطيعوا الرسول، ولكن أمر أيضًا بطاعة النبي واتباعه وعدم عصيانه</u>، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٧-١٥٨]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الممتحنة: ١٢]، وقوله تعالى: {وَلَا يَعْصِينَكَ} تدل على وجوب اتباع النبي وعدم عصيان أوامره.

<u>كما أن هناك آيات تأمر باتباع الرسول ﷺ دون وصفه برسول أو نبي</u> ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

ختامًا نحن نريد طاعة الله عز وجل ومعرفة سبيل الله وطريقه المستقيم الذي يرضيه، وهذا الطريق خير من يبينه لنا هو الرسول نبينا ﷺ كما قال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]، فالآيات ذكرت أن الهداية في شيئين (الوحي) و(شخص النبي ﷺ) الذي يأتيه الوحي، ولم يذكر صفة له بمقام نبوة أو رسالة.

قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي
لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ
فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ
وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨

التفسير الميسر

قل -أيها الرسول- للناس كلهم: إني رسول الله إليكم جميعًا لا إلى بعضكم دون بعض، الذي له ملك السموات والأرض وما فيهما، لا ينبغي أن تكون الألوهية والعبادة إلا له جل ثناؤه، القادر على إيجاد الخلق وإفنائه وبعثه، فصدِّقوا بالله وأقرُّوا بوحدانيته، وصدِّقوا برسوله محمد ﷺ النبي الأميِّ الذي يؤمن بالله وما أُنزل إليه من ربه وما أُنزل على النبيين من قبله، واتبعوا هذا الرسول، والتزموا العمل بما أمركم به من طاعة الله؛ رجاء أن توفقوا إلى الطريق المستقيم.

الاعتراض الثالث

القرآن مستقل وفيه بيان لكل شيء!

كثيرًا ما يأتي لك منكر السنة بسلاح الترهيب، ويعتمد على تقديس المسلمين لكتاب الله وأنه الحاكم لنا والمنهج والمرجعية التي ارتضاها لنا، فيعمد على بعض الآيات التي ذكر الله عز وجل أن القرآن فيه بيان لكل شيء كقوله تعالى:

﴿... وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ [النحل: ٨٩]، وهو يريد أنْ يخرج بنتيجة أنّ القرآن بيّن كل شيء؛ ومنها فإننا لا حاجة لنا بطاعة الرسول ﷺ.

طبعًا هذا كلام حق يراد به باطل لو جاز لنا التوصيف والرد عليه من عدة أوجه:

الوجه الأول: خطأ في الاستدلال بالآيات التي لها نظائر ومتشابهات في نفس الباب، الله عز وجل وصف كتابه العزيز فقال أن كتاب الله آيات محكمات وأخر متشابهات، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران: ٧].

الآن آية: {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء}، هذه الآية تكررت في سورة النحل فقط ثلاث مرات في ثلاثة مواضع مختلفة؛ فمرة ذكر التبيان بصيغة المصدر فأبهم لنا الفاعل (المبين) ﴿... وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ...﴾ [النحل: ٨٩]، ومرتين ذكر (لتبين) فقال تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: ٤٤]، ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾ [النحل: ٦٤]، لغويًا الفاعل في

الآيتين هو الرسول ﷺ؛ إذن دلالة أن الرسول مبين هذه ثابتة وقوية بدلالة صريح النص، ولا يستطيع أحد أن يتجاهلها.

وللجمع بين الآيات؛ فكتاب الله حقًا تبيانًا لكل شيء، وهو من أحال لرسول الله ﷺ ليبين أيضًا بعض نصوص هذا الكتاب، خاصة النصوص التي حوت الشعائر والمناسك العملية والتي تحتاج لتطبيق عملي وليس فقط كلام نظري.

وهنا لنا وقفة نتعجب فيها من إخبار القرآن لنا عن حال أصحاب الأهواء الذين في قلوبهم مرض ويبغون الفتنة، تجدهم فعلًا يكثرون من الاعتماد على المتشابه من كتاب الله {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}، وورد في صحيحي البخاري ومسلم عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «تَلَا رَسولُ اللَّهِ ﷺ هذِه الآيَةَ: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [آل عمران: ٧]، قَالَتْ: قَالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ منه فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ، فَاحْذَرُوهُمْ».

الوجه الثاني: كتاب الله تبيان لكل شيء، وهو من بيّن في عشرات المواضع وجوب اتباع الرسول وطاعته، وأن يكون لنا أسوة وألا نخالف أمره، وجعل طاعة الرسول من طاعة الله، ومن شروط الإيمان طاعة الرسول؛ فمن كان صادقًا حقًا في اتباع كتاب الله وبيانه كيف له أن يتجاهل عشرات الآيات التي تثبت طاعة الرسول ﷺ ووجوب اتباعه؟!

هؤلاء من وصفهم الله عز وجل بأنهم جعلوا القرآن عضين فقال تعالى في سورة الحجر: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ٩١﴾ [الحجر: ٩٠-٩١]، يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآيات: «وقوله: {المقتسمين} أي: المتحالفين، أي: تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كما قال تعالى

إخبارًا عن قوم صالح أنهم: {قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله} [النمل: ٤٦] أي: نقتلهم ليلًا، قال مجاهد: تقاسموا: تحالفوا، {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت} [النحل: ٣٨]، {أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال} [إبراهيم: ٤٤]، {أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة} [الأعراف: ٤٩]، فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه فسموا مقتسمين.

م قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح، الذين تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله، قوله: {الذين جعلوا القرآن عضين} أي: جزءوا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض».

الوجه الثالث: الآية لا يُفهم منها عدم طاعة النبي، ولا يوجد أي آية تأمر بعدم طاعة النبي كما يزعم هؤلاء، بنفس المبدأ ونفس الفكر نحن نؤمن أن القرآن تبيان لكل شيء، فلو أراد لنا ألا نطيع النبي ﷺ لقال لنا: (يا أيها الذين آمنوا لا تطيعوا النبي)، لماذا لا يوجد في كتاب الله آية تصرح أو حتى يُفهم منها ألا نطيع النبي؟! وحتى الآيات التي عاتب فيها الله عز وجل رسوله ﷺ لم تنهانا عن طاعته، بل أقرّت باتباعه مثلًا في أخذ الفدية من أسرى بدر بالرغم من نزول آيات لعتابه في الأمر، لكن هل أمرت بإرجاع الفدية؟ لا بل نزل الحكم أن لو كان هناك حكم مسبق من الله عز وجل لكانت هذه مخالفة لحكمه المسبق تستحق العقاب {لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم} ولم يكن هناك حكم مسبق، ولم ينزل عقاب؛ إذن فهذا إقرار على اتباع النبي ﷺ، وصحة فعل الصحابة رضوان الله عليهم، وبنفس المبدأ من يريد منّا ألا نتبع النبي ﷺ فليأتنا بآية تأمرنا صراحة بعدم اتباعه؛ لأننا نؤمن أن الكتاب مبين لكل شيء.

بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ
ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤

التفسير الميسر

وأَرْسَلْنا الرسل السابقين بالدلائل الواضحة وبالكتب السماوية، وأنزلنا إليك -أيها الرسول- القرآن؛ لتوضح للناس ما خفي مِن معانيه وأحكامه، ولكي يتدبروه ويهتدوا به.

الاعتراض الرابع

اتباع ما دون الله من البشر شرك بالله عز وجل!

هذا كلام لا يُقال مطلقًا هكذا، ولابد من وضع توضيحات لما هو الاتباع المذموم المنهي عنه والاتباع غير المذموم؛ وإلا هكذا يندرج تحته أي أحد يتبع تعليمات وقواعد نظرية في العلوم الدنيوية، وطبعًا هذا كلام غير منطقي أبدًا ولا يقول به أي أحد.

وهذا الاعتراض فاسد من أوجه كثيرة نستعرضها سويا إن شاء الله:

الوجه الأول: لو طبقنا هذا الكلام فأول من نرد كلامه هو صاحب الاعتراض فهو بشر مثلنا، ويلزمنا أن نرد كلامه وألا نقبل اتباعه فيما يقول، فإن قال: أنا أبلغكم كلام الله، فنقول: وكذلك كتب العلماء تبلغنا كلام الله وكل يؤخذ ويرد عليه؛ فمن ظهر منه مخالفة شرعية لما هو ثابت يُرد عليه ولا يقبل، ولم يقل أحد أننا نأخذ أقوالهم دون مناقشة الأدلة التي استندوا عليها، فمن كان دليله صحيحًا واستنتج استنتاجًا صحيحًا لا يعارض ثابتًا من ثوابت الشريعة قُبِل منه كلامه، وما كان غير ذلك روجع فيه ونوقش من قِبل أهل الاختصاص الذين لديهم القدرة والعلم ويقفون على الأدلة بطريقة صحيحة وهكذا هو الحال دومًا؛ ولذلك اسمع لما قال تعالى في شأن هذا الاتباع: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: ١٧٠]، فالله عز وجل لم يذم الاتباع بل ذم عدم وجود علم وهدى مع آبائهم {أولو كان آباءهم لايعقلون شيئا ولايهتدون}، وهذا ما أكدّه حين وردت الآية بصيغة أخرى في سورة المائدة فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا

مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴿١٠٤﴾ [المائدة: ١٠٤] هنا ذكر أن الذم لآن آباءهم ليس لديهم علم يهديهم.

وهنا لنا وقفة بسيطة في هذه الآية أن الله عز وجل أمر باتباع ما أنزل الله والرسول فزاد اتباع الرسول، ولكن ماذا فعل منكر السنة؟ فعل تمامًا ما أخبرنا به الله عز وجل في سورة النساء حين ذكر نفس الآية ونفس الدعوة لاتباع ما أنزل الله واتباع رسوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١] صدّ عن رسول الله صدودًا، وسبحان الله نفس الآيات ونفس الدعوة للاتباع فهي من المتشابهات، ولكن منكر السنة يردد آية ويترك البقية كأنها ليست من كتاب الله، وهذا نهج من في قلبه مرض كما أخبر تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}؛ لذا كتاب الله لا يؤخذ إلا كاملًا، وانسلاخ منكر السنة من الدين لا يفرق عن انسلاخ المنافقين في كل زمان ومكان، ونسأل الله أن يهدينا ويثبتنا على دينه حتى نلقاه غير مفتونين.

ولذلك إن كان هناك علم فنحن مأمورون باتباعه؛ لأنه الذي يهدي إلى صراط الله المستقيم، وهذا ما قاله إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴿٤٣﴾﴾ [مريم: ٤٣]، وكما قلنا من قبل أن هذا الصراط خير من يبينه لنا ويهدينا له هو رسول الله ﷺ الذي يأتيه الوحي من الله، وهذا ما أكده قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]، وهذا ما أكده أيضًا في سورة المؤمنون: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ [المؤمنون: ٧٣]، وقوله أيضًا في سورة

يوسف: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

الوجه الثاني: الله عز وجل أخبر أن هناك بشرًا سخرهم لهداية الناس، فقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف: ١٨١]، وقال أيضًا: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، **ففي الآية الأخيرة ذكر لنا الحق سبحانه أن التوراة كان يحكم بها الأنبياء ومن تبعهم من الربانيين والأحبار، وهؤلاء من علماء بني إسرائيل وبشر لم يوح إليهم ولم يُكلفوا بالنبوة.**

الوجه الثالث: الله عز وجل أمرنا بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه المهمة لبشر من أفراد الأمة، فطالما أمر بالدعوة فالأمة مطالبة بإجابة هؤلاء الدعاة، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال أيضًا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠]، **بل وجعل هؤلاء الدعاة المصلحين هم أمنة للأمة من عذاب الله، ولولا وجود المصلحين في الأمة لاستحقت العذاب كما قال تعالى:** ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٦-١١٧].

الوجه الرابع: أمرنا الله عز وجل في كتابه بالاحتكام لبشر، فشرع قبل الطلاق أن يلجأ الزوجان لحكمين فقال تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ٣٥﴾ [النساء: ٣٥]، بل وترك الحكم في كفارة للبشر فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ ...﴾ [المائدة: ٩٥]، **وطالما أمر بالاحتكام فحكمهم واجب التنفيذ.**

وهكذا يتبين لنا أن دعوى (اتباع ما دون الله شرك) هذه ناتجة عن سوء فهم، وأن كتاب الله عز وجل أمرنا بالاهتداء والاقتداء ببشر، بل وأمرنا بالاحتكام لهم لحل الخلافات، وترك الحكم لهم في كفارة تكفر ذنب تم اقترافه في حرم من حرمات الله.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم.

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ
وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

التفسير الميسر

ومن الذين خَلَقْنا جماعة فاضلة يهتدون بالحق ويَدْعون إليه، وبه يقضون وينصفون الناس، وهم أئمة الهدى ممن أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح.

الاعتراض الخامس

الوحي فقط خاص بالقرآن الكريم!

إثبات أنّ السنة وحي من عند الله أعتقد أنه من أكثر الأبواب التي كتب فيها العلماء وخدموها بشكل جيد جدًا لا يترك لأي أحد حجة فقط يبحث بتجرد ويصدق مع نفسه سيجد أنه لا مفر أمامه إلا الاعتراف أنّ السنة من جملة الوحي الذي أوحاه الله عز وجل لرسوله ﷺ.

بعض الأدلة من القرآن على أن السنة وحي، وهذا من عدة وجوه:

الوجه الأول: الإخبار أن كل ما ينطق به الرسول ﷺ هو وحي، قال تعالى في سورة النجم: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم: ١-٥]، والمنطوق كما جاء في معجم المعنى الجامع: «نطَق الشّخصُ بكذا: أي لفظ، تكلَّم بصوت وحروف تُعرف بها المعاني»، والآية على عمومها لتشمل كل ما ينطق به ﷺ، وحتى نخصص هذا العموم نحتاج لنص آخر من الوحي، ولا نخصصه برأينا الشخصي.

الوجه الثاني: الإخبار بإنزال الحكمة المعطوفة على الكتاب:

تكرر ذكر الحكمة في كتاب الله فتارة تأتي مفردة وتارة تأتي مقرونة إما بالكتاب أو بالملك أو بآيات الله، لذا فهي تفسر بحسب السياق؛ فقد تفسر بالنبوة أو بالفهم الصحيح أو بالفقه في الدين أو بشيء من الوحي المنزل وما غير ذلك، وذهب أغلب المفسرين أن الحكمة المعطوفة على الكتاب إذا كانت متعلقة بالنبي ﷺ فيُراد بها سنته؛ وذلك لدلالة العطف المقتضي للمغايرة، ولدلالة السياق، ولمقتضى موافقة قوله تعالى: {ويعلمهم الكتاب والحكمة} مع تواتر تعاليم الرسول ﷺ من أحكام الإسلام التي لم تذكر في القرآن كالصلاة والزكاة وغيرها.

وبالمناسبة ليس الشافعي أول من قال بهذا كما يزعم البعض، فلو فتحنا تفسير الطبري لقوله تعالى: {واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة} ستجده ينقل قولًا عن قتادة أنها السنة، وقتادة بن دعامة السدوسي من التابعين، وتوفي قبل مولد الشافعي بفترة، وأنقل لكم قوله: «حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة في قوله: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بِيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ} أي: السنة، قال: يمتن عليهم بذلك»، وهذه الحكمة هي من الله لكل الأنبياء كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

وقد يحتج البعض على دلالة العطف التي تقتضي المغايرة بقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٨]، والذي تكرر مرة أخرى في سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ ...﴾ [المائدة: ١١٠]، وهذه الآية حجة عليه من وجوه عدة نستعرضها معًا:

أ- التوراة غير الإنجيل وهذا معلوم لأي أحد فقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦]، فالإنجيل نزل خاصًا بسيدنا عيسى عليه السلام، والتوراة كانت موجودة من قبله، هو صدق بها {مصدقًا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور}.

ب- الكتاب وصف ورد ذكره لوصف أكثر من شيء؛ كتاب لا يعلمه إلا الله فيه كل الخلائق والمقادير، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: ٣٨]، وطبعًا لا يعلم أحد بكتاب أنزله الله على الأرض فيه ذكر كل دابة تدب على الأرض ولا كل طائر، وقال أيضًا: ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٧٥﴾ [النمل: ٧٥]؛ لذا فهناك كتاب لا يعلمه إلا الله كتب فيه جميع الغيبيات والخلائق، وكتاب ينزل للمرسلين فيه الشريعة الخاصة بهم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ ...﴾ [المائدة: ٤٨].

إذن الآيتان: {ويعلمه الكتاب}، {إذ علمتك الكتاب} يكون لدينا احتمالان لمعنى الكلمة وهما: هل علّمه من تعاليم الكتاب الذي عند الله وفيه مقادير كل شيء، أم يقصد به علمه الكتاب الخاص به وهو الإنجيل؟

طبعًا سيكون المعنى هو: يعلمه من الكتاب الذي عند الله، والذي كتب فيه مقادير كل شيء، والدليل في ذلك هو ذكر (التوراة والإنجيل) فالتوراة تزيد عن الإنجيل؛ إذن فالكتاب المذكور به تعاليم تزيد عن تعاليم الإنجيل، وهذا يرجح أنه قصد يعلّمه من تعاليم الكتاب الذي عند الله، وهذا الكتاب أيضًا نزل منه القرآن الكريم كما قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ [الزخرف: ٣-٤]، وهذا لا يعني أنه علمه كل الكتاب وإنما علمه من العلم الذي في الكتاب كما نقول لشخص: تعال نعلمك اللغة العربية، وقطعًا لا نستطيع أن نعلمه كامل قواعد اللغة والنحو والصرف والبلاغة والمفردات، وإنما سيتعلم شيئًا منها ينفعه.

ج- تتبقى الحكمة وهي مفهوم واسع لحسن التصرف، ويؤتيه الله لمن يشاء كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقد ذكر الله عز وجل شخصًا آتاه الحكمة وهو لقمان، ولم يرد ذكر أنّه حتى نبي أو مرسل لقومه فلا يوجد آية يصرح فيها بنبوته، ولا جاء تلميح في القرآن يذكر أنه أرسل لقوم، وكل ما ذكر عنه هو تعاليمه لابنه، قال تعالى:﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: ١٢]؛ لذا فالحكمة لها مفهوم خاص بها وليس فقط تعاليم الكتاب، وهي أوسع من أن نحصرها بتعاليم من داخل الكتاب، والقرآن أسلوبه بليغ تحدى ببلاغته جهابذة العرب لا يمكن أن يأتي بكلمة ويعطفها على نفسها، فهذه ركاكة في الأسلوب تنتقص من بلاغة الأسلوب وجماله.

الوجه الثالث: تكفل الله عز وجل ببيان قرآنه وإخباره أن الرسول يبين للناس ما نزل إليهم، قال تعالى في سورة القيامة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٧-١٩]، وأحال الحق سبحانه للرسول ليبين للناس ما نزل إليهم كما قال تعالى في سورة النحل: ﴿... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤]، والتبيين ليس فقط إظهار الشيء بل يشمل مزيدًا من الإيضاح والبراهين التي تجعل المعنى يستقر كما قال تعالى لنبيه: {عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} فلو كان الأمر ظاهرًا دون أدلة وبراهين لكان الأمر سهلًا، وعرف الرسول ﷺ المنافقين الكاذبين بسهولة.

الوجه الرابع: الآيات الدالة على أن النبي ﷺ أخبر بأحكام وأخبار ولا نجدها في القرآن، أمثلة ذلك:

* قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴿١٢٤﴾﴾ [آل عمران: ١٢٤]، "إذ" للدلالة على الماضي، وأن الرسول ﷺ أخبر أصحابه بأن الله سيمدهم بثلاثة آلاف من الملائكة، وخبر كهذا أبدًا لا يكون اجتهادًا منه ﷺ.

* آيات تحويل القبلة في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ ...﴾ [البقرة: ١٤٢]، هنا بين الحق سبحانه قول السفهاء واعتراضهم على تغيير القبلة {ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها}، وبما أن القبلة القديمة التي تولوا عنها ليست مذكورة في القرآن، والرسول ﷺ توجه لها بوحي وأمر من الله كما قال تعالى: ﴿... وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ ...﴾ [البقرة: ١٤٣] وهذا الأمر غير مذكور في القرآن؛ إذن هو وحي من خارج القرآن الكريم.

* آيات سورة التحريم {نبأني العليم الخبير} ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴿٣﴾﴾ [التحريم: ٣]، وطالما النبأ من العليم الخبير سبحانه أي أنه وحي له ﷺ، وهذا النبأ والخبر ليس في القرآن؛ إذن فهو وحي خارج القرآن الكريم.

سُورَةُ النَّجۡمِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ
ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ
فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ
قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ
مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣
عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ
مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ
ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ۝١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠
أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ
سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٢٣ أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ
مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ۝٢٥ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ۝٢٦

الاعتراض السادس
الله عز وجل لم ينزل إلا الكتاب!

أصحاب هذا الاعتراض منهم الغلاة الذين يقولون أن الله أنزل الكتاب جملة واحدة، والرسول ليس عليه إلا تبليغه، ومنهم من يقول بأن القرآن نزل مفرقًا ولكن أيضًا الرسول ليس عليه إلا تبليغه، وهم جميعًا اشتركوا في أن الرسول ليس عليه إلا البلاغ.

وأصحاب الفريق الثاني اعتراضهم مشابه لاعتراض من يقولون أن الوحي هو القرآن فقط ونحن مأمورون باتباع الوحي كله كما قال تعالى:

﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وطالما أثبتنا أن هناك وحيًا خارج القرآن؛ إذن فنحن مأمورون باتباعه.

أولًا: الرد على من يزعمون أن القرآن نزل جملة واحدة:

هناك أدلة عقلية وأدلة نقلية من الكتاب تثبت أن القرآن نزل متفرقًا نستعرضها معًا.

أولًا: الأدلة العقلية:

الدليل الأول: أين نزل وكيف نزل جملة واحدة من السماء إلى الأرض؟

أصحاب هذا القول يحتجون بقوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر: ١]، ونحن تنزلًا للجدل نقول لهم: حسنًا عرفنا متى نزل، ولكن أين نزل؟ في مكة أم في المدينة؟ في بيت السيدة خديجة أم بيت زوجة أخرى من زوجات الرسول أم في غار حراء أم أين نزل؟ والأهم كيف نزل؟ فلو قلنا غابت عنا المعلومات عن أين نزل فأكيد لن تغيب عنا كيفية نزوله؟ هل نزل في ألواح كألواح موسى؟ أم نزل في قرطاس وكتاب مجموع سويًا؟ وأين ذهب هذا الكتاب الأول؟ هل يعقل أن المسلمين

تخلوا عن كتاب مقدس نزل من السماء بهذه السهولة؟ كيف والناس تتبع بقايا بيت رسول الله وما كان يستعمله ويحتفظون بها في متاحف كخوذته وما شابه؟ فكيف بنا لا نعرف شيئًا عن كتاب الله الذي نزل من السماء إلى الأرض؟!

الدليل الثاني: لو كان نزل القرآن جملة واحدة لم التدرج الموجود في الأحكام؟

من يقرأ كتاب الله يرى بعض الأحكام فيها بعض من التدرج، وبعضها فيها ما يوهم التضاد.

من الأحكام التي فيها بعض التدرج: آيات تحريم الخمر، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ...﴾ [البقرة: ٢١٩] هنا بيّن أن في الخمر منافع ولم يذكر التحريم صراحة، ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ...﴾ [النساء: ٤٣]، فقوله تعالى: {وأنتم سكارى} في خطابه الموجه للمؤمنين دليل على أن المؤمنين قد يكونون على حالة من السكر ولم يرفع عنهم صفة الإيمان، والنهي جاء عن أن يأتوا الصلاة وهم على هذه الحالة، ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠] جاء النهي صراحة عن اقتراب الخمر، وأنه رجس من عمل الشيطان وأمر باجتنابه، وهذا الوصف والأمر نفسه هو ما ورد في حق عبادة الأوثان وقول الزور، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج: ٣٠]، فإذا علم أن الخمر محرم فلم هذا التدرج في تحريمه إن كان نزل القرآن جملة واحدة؟!

من الأحكام التي فيها ما يوهم التضاد في كتاب الله: إباحة الزواج من النساء للنبي ﷺ ثم نهيه عن الزواج، والأعجب أن الآيات متتاليات في سورة الأحزاب، فقال

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٠﴾ [الأحزاب: ٥٠]، هنا أباح الله عز وجل لنبيه الزواج من النساء {إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين} ثم قال تعالى بعدها بآيتين: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢﴾ [الأحزاب: ٥٢]، ففي هذه الآية تحريم على النبي الزواج من النساء حتى ولو أراد أن يستبدل إحدى أزواجه ويطلقها ويتزوج غيرها، فكيف نفهم هذه الآيات إن كانت نزلت سويًا وفي نفس الوقت؟!

ثالثًا: وجود سور مكية وأخرى مدنية في كتاب الله:

كتاب الله بين أيدينا مقسم لسور مكية وأخرى مدنية، فما تفسير هذا التقسيم إن كان القرآن نزل جميعه مرة واحدة؟!

ومن **الأدلة النقلية** الواردة في كتاب الله الدالة على أن القرآن لم ينزل جملة واحدة:

أولًا: آيات ذكرت أن الكفار استنكروا أن القرآن (لم ينزل جملة واحدة):

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان: ٣٢]، فالكفار تعجبوا أن القرآن ينزل متفرقًا، فقالوا لم لا ينزل جملة واحدة؟ وبيّن الله عز وجل أن سبب نزوله متفرقًا لتثبيت قلب الرسول ﷺ، فيبقى يأتيه آيات جديدة تثبته وتعينه على الأذى الذي يلاقيه في دعوته إلى دين الله.

ثانيًا: آيات ذكرت أن القرآن لم ينزل كتابًا في قرطاس:

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [الأنعام: ٧].

ثالثًا: آيات تبين أن القرآن ينزل ردًا على ادعاءات الكفار والأسئلة التي ترد للرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ [الفرقان: ٣٣]، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥]، وغيرها من الآيات التي تبين أن القرآن كان ينزل ليرد على بعض التساؤلات التي ترد للنبي ﷺ.

رابعًا: آيات وصفت القرآن بالذكر (المحدث) الذي يأتي للكفار وينكرونه كلما يأتيهم:

قال تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ٥﴾ [الشعراء: ٥]، ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٣﴾ [الأنبياء: ١-٣]، فما الحاجة لوصف الذكر بأنه (محدث) إن كان القرآن نزل مرة واحدة مشتملًا على جميع الآيات؟

لذا فالادعاء أن القرآن نزل مرة واحدة ادعاء باطل مخالف للسياق التاريخي، ومنافٍ للعديد من الأدلة التي تثبت أن القرآن نزل متفرقًا من عند الله.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ
وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢

التفسير الميسر

وقال الذين كفروا: هلاَّ أنزل القرآن على محمد جملة واحدة كالتوراة والإنجيل والزبور! قال الله سبحانه وتعالى: كذلك أنزلناه مفرقًا؛ لنقوِّي به قلبك وتزداد به طمأنينة، فتعيه وتحمله، وبيَّنَّاه في تثبت ومُهْلَة.

الاعتراض السابع

ما على الرسول إلا البلاغ، وأين تفسير النبي ﷺ للقرآن؟!

هذا الاعتراض الشهير الذي حوّل رسول الله ﷺ لمجرد شخص يوصل الرسالة وانتهت مأموريته!! وفساد هذا الادعاء من عدة وجوه:

نبدأ بالأدلة العقلية على فساده:

الدليل الأول: حين نحصر أفعال الرسول ﷺ طول حياته دون الخوض في تفاصيل تاريخية وسرد لأحداث سيرته ﷺ، لكن بلغ الرسالة أو القرآن ثم ماذا فعل الرسول ﷺ بقية حياته؟

في البداية الرسول ﷺ لم يكن أخرسًا، ولو أنت منكر للسيرة فأقول لك الدليل العديد من الآيات التي بدأت بـ{قل} أي أنه كان يتكلم، وكذلك لم يكن معتزلًا للناس ولا يفتيهم في الدين بدليل العديد من الآيات التي نزلت جوابًا على السؤالات التي ترده وبدأت بـ{ويسألونك}؛ إذن فهو كان يتكلم ويتحدث ويخالط الناس ويبين لهم دينهم، وقطعًا طوال حياته لابد أن يكون له كلام وأفعال غير آيات الله؛ لأن سرد القرآن كاملًا لا يستغرق عدة أيام على أقصى تقدير.

الآن نحن أمام ثلاثة خيارات:

الأول: أن حياته ﷺ خالفت القرآن الذي بلغه، وحاشاه أن يكون ﷺ هكذا، فهذه الصفة تنافي حتى المؤمن الصادق ناهيك عن من اصطفاه الله عز وجل للنبوة، وقال تعالى في سورة الصف: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٣]، وهل سيترك الله عز وجل رسوله يفعل شيئًا يغضبه أو لا يرضيه؟! قطعًا لن يكون ذلك، والله عز وجل مطلع ولا يخفى عليه شيء، على الأقل سينزل قرآنًا يذكر ذلك، وقد عاتبه في عبوسه لأعمى لا يرى أساسًا وجهه الشريف فكيف بما هو أكبر من ذلك؟!

الثاني: أن حياته ﷺ كانت موافقة للقرآن الذي بلّغه، وهذا ما أكّده قوله تعالى :﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤]؛ إذن فالرسول ﷺ كان: يتلو آيات الله، يعلم المؤمنين الكتاب والحكمة، ويزكيهم، ويبين لهم ما ينفعهم؛ ولهذا فنحن نتبعه امتثالًا لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران: ٣١].

الثالث: أن حياته كان بها أمور لا وافقت ولا خالفت القرآن، ونحن نتخذه أسوة ونقتدي به اتباعًا لقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١]، أي أننا في هذه الأمور التي لم يرد ذكرها في كتاب الله أيضًا نقتدي به اتباعًا لأمر ورد في كتاب الله.

وقد يسأل البعض: إن كان الرسول ﷺ يحدث الصحابة في الدين ويبين لهم القرآن فأين تفسير النبي ﷺ؟

السائل على تفسير النبي ﷺ ويقصد به بيان معاني ومفردات الكلمات نقول له: أنت هكذا تكذب القرآن! قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: ٤]، كيف يكون القرآن بلسان قوم الرسول ﷺ ثم يحتاجون منه أن يبين لهم معاني المفردات والكلمات؟!

التفاسير التي ظهرت بعد ذلك ظهرت لتبيين معاني المفردات والكلمات القرآنية لغير أصحاب اللسان بسبب انتشار الإسلام في شتى بقاع الأرض، ففي غضون سنوات قصيرة كان الناس داخل أسوار الصين يتعرفون على كتاب الله، وهذا بفضل

الله أن يُسمع كلامه في شتى بقاع الأرض، وأن يدخل الناس في دين الله أفواجًا من كل جنس وعرق، وهؤلاء من احتاجوا للتفاسير؛ لأنهم ليسو من أصحاب اللسان العربي، وبالطبع بمضي الزمن بدأ يختلط اللسان العربي وقلّ من يعرف لسان قريش؛ لهذا زادت الحاجة لوجود معاني لبعض مفردات الكلمات التي وردت في كتاب الله.

الدليل الثاني: الله عز وجل ذكر أن مجرد قراءة آيات الله على شخص وأنت تعلم أنه لن يفهمها فهذا لن يفيده، قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١٩٩﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٩]، هذه الآيات وضحت لنا أمورًا هامة منها:

- أنك لو قرأت كلامًا على شخص بغير لغته التي يفهمها فهذا لن يفيده مثال ذلك: هات التوراة واقرأها بلغة بني إسرائيل العبرية وانظر ماذا ستفهم منها؟ أعتقد لن تستطيع فهم شيء منها حتى تتعلم العبرية.
- والأمر الآخر أنه يؤكد على عدم حاجة الصحابة لبيان معاني مفردات للآيات؛ وهذا يبين لماذا لم يفسر الرسول ﷺ القرآن، ويبين معاني مفرداته، وهو فقط اقتصر على تبيين ما احتاجوا إليه والتبس عليهم، وكذلك شرح المناسك والأحكام، فكما ورد عَنْ عبدِ اللَّهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عنْه، قالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هذِه الآيَةُ: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام: ٨٢]، شَقَّ ذلكَ علَى أصْحابِ النَّبيِّ ﷺ، وقالوا: أيُّنا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟! فقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: ليسَ كما تَظُنُّونَ؛ إنَّما هو كما قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ ﴾[لقمان: ١٣]»، والحديث في البخاري ومسلم.

ثم الأدلة النقلية التي تبطل هذا الادعاء من كتاب الله:

أولًا: الآيات التي ذكرت أن وظيفة الرسول ﷺ لم تقتصر على البلاغ، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وهو ما كرره أيضًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: ٢]، وأيضًا: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]؛ إذن فالرسول ﷺ كان: يتلوا آيات الله، يعلم المؤمنين الكتاب والحكمة، ويزكيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال أيضًا: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤]، فأضاف للرسول ﷺ وظيفة التبيين لما أنزله الله عز وجل، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، فحتى هنا حين ذكر البلاغ ذكره أنه {بلاغ مبين} وليس فقط بلاغ دون بيان.

ثانيًا: لو فرغنا من الآيات التي توضح وظيفة الرسول نجد عشرات الآيات الموجهة لنا وتخاطب المؤمنين بطاعة الرسول والتحذير من مخالفته، وهذه الآيات لا يمكن أن نغفل عنها، قال تعالى:* ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢]. * ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

* ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

* ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

* ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومن الآيات التي جعلت طاعة الرسول ﷺ من شروط الإيمان بالله عز وجل، وعلامة من علامات الإيمان به قوله تعالى:

* ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

* ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

* ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

* ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور: ٦٢].

* ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومن الآيات التي تحذر وتنهى عن مخالفة الرسول ﷺ:

* ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

* ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣].

* ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦٣].

* ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

* ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النساء: ٤١-٤٢].

* ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ....﴾ [التوبة: ١٢٠].

وكل هذه الآيات وغيرها مما يوضح صراحة أننا مأمورون باتباع الرسول، ومنهيون عن مخالفة أوامره والحياد عن طريقه؛ إذن فالقول أن الرسول ﷺ مجرد مبلغ للرسالة وفقط وليس له طاعة هذا عارٍ تمامًا من الصحة، ومنافٍ لأبسط قواعد المنطق والتفكير السليم، ناهيك عن كونه مخالفًا لأوامر الله عز وجل.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم.

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

التفسير الميسر

لقد كان لكم -أيها المؤمنون- في أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وأحواله قدوة حسنة تتأسَّون بها، فالزموا سنته، فإنما يسلكها ويتأسى بها مَن كان يرجو الله واليوم الآخر، وأكثرَ مِن ذكر الله واستغفاره، وشكره في كل حال.

الاعتراض الثامن

لا طاعة لميت!

افتراضات وتخيلات وفلسفة فارغة لا علاقة لها بالدين، الهدف منها فقط التشغيب وتشتيت الذهن، ورسم صورة أن موقف إنكار السنة موقف عقلاني وهو على العكس تمامًا أبعد ما يكون عن العقل والمنطق، وهذا الاعتراض فاسد من وجوه عديدة منها:

أولًا: لا مانع عقلًا من أن تكون طاعة الرسول هي طاعة كلامه ﷺ كما أن طاعة الله عز وجل هي طاعة لكلامه سبحانه، فنحن آمنا بالله عز وجل ولم نره ولم يوحِ إلينا، ولكن آمنا به غيبًا؛ ولهذا أول آيات سورة البقرة توضح هذا الإيمان وتزكيه وتصف أنه إيمان المتقين فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ١-٥].

وحين نسمع قوله عز وجل: {وأطيعوا الله} فأول ما يتبادر للذهن هو تنفيذ أوامره ونواهيه التي نقرؤها في كلامه عز وجل، ولا يقول أحد أبدًا أننا يجب علينا أن نرى الله مباشرة أو نسمع كلامه حتى نطيعه، وهو عز وجل {لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}، ولن يكلمه أحد مباشرة أو حتى بوحي، وقد انتهت النبوات وختمت برسول الله ﷺ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ۝٤٠﴾ [الأحزاب: ٤٠].

إذن فكما أننا لتنفيذ أمره عز وجل {وأطيعوا الله} ليس لنا إلا طاعة كلامه المنزل إلينا ونُقل لنا عبر الثقات كما قال واصفًا إياه: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ

فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ}، فكذلك طاعة الرسول ﷺ عن طريق طاعة كلامه وأقواله المحفوظة ونُقلت إلينا عبر الثقات الذين نأتمنهم.

ثانيًا: هذا الكلام لايعمل به في أي علم من العلوم، ففي شتى العلوم نتبع قواعد ونظريات أسسها علماء، وتم التحقق منها وإثبات صحتها فأصبحت شبه مسَلّمات، وبعد ذلك يتم التعامل مع كلام العلماء دون الحاجة لوجودهم، وأصبح وجودهم متمثل في وجود نظرياتهم وقواعدهم وإسهاماتهم العلمية، والعلوم أنواع مختلفة منها التجريبية ومنها الاستدلالية ومنها التاريخية، وكلها نجد فيها أقوالًا وقواعد لعلماء نبغوا في فنهم.

ثالثًا: في كتاب الله أوجب علينا طاعة الميت وتنفيذ وصيته، وبالتالي فالقاعدة تنطلق من منطلق مناف لكلام الله عز وجل الذي أوجب تنفيذ وصية المتوفي فقال تعالى في آيات المواريث: {من بعد وصية يوصي بها أو دين} بل وكررها مما يبين أهمية الوصية وتنفيذها.

رابعًا: إلغاء طاعة الرسول ﷺ بعد وفاته يؤدي لنقصان الدين، فالدين شعائر ومناسك وجل تفاصيل الشعائر والمناسك بيّنها الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحج: ٦٧]، وقال على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨].

لذا فالمناسك تحتاج لمن يعلمها لنا ويرينا كيف هي، وهذا من وظائف الرسول ﷺ والذي امتن به الله عز وجل على هذه الأمة فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ولو ألغينا تعاليم

الرسول لهذه المناسك فهذا سيؤدي لنقصان الدين، والله عز وجل أتم نعمته على هذه الأمة وأكمل لها الدين، ومن يدعي أن الدين ينقصه شيء فسيؤدي هذا إلى:

– تكذيب الله عز وجل الذي ارتضى هذا الدين لهذه الأمة، فقال تعالى: ﴿...ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾ [المائدة: ٣].

– اختراع تفسيرات للشعائر والمناسك من عنده وهي ما لم ينزل الله بها من سلطان؛ وبالتالي هي ليست مما يرضي الله ولا من الدين الذي ارتضاه بنفسه لهذه الأمة وأمرنا أن نتعبد به، بل وهذا ما وصفه الله عز وجل فيمن يُعرض عن النبي ﷺ أنه يتبع هواه، وأن هذا الاتباع لن يؤدي به إلا إلى الضلال فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠﴾ [القصص: ٥٠].

* هذا والله تعالى أعلى وأعلم *

الاعتراض التاسع

كيف نثق في نقل السنة لنا؟!

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

التفسير الميسر

وما محمد ﷺ إلا رسول من جنس الرسل الذين قبله يُبَلِّغ رسالة ربه. أفإن مات بانقضاء أجله، أو قُتِل -كما أشاعه الأعداء- رجعتم عن دينكم، وتركتم ما جاءكم به نبيكم؟ ومن يرجِعْ منكم عن دينه فلن يضر الله شيئًا، إنما يضر نفسه ضررًا عظيمًا. أما مَن ثبت على الإيمان وشكر ربه على نعمة الإسلام، فإن الله يجزيه أحسن الجزاء.

هذا الاعتراض هو الأشهر بين كل من يريد أن يطعن في دين الله وليس فقط منكر السنة، فالتشكيك في الدين هو مدخل كل من يريد أن ينال من هذا الدين، وهذا دأب كل من عارض الأنبياء والرسل أن يشكك فيما جاءوا به والاستهزاء بدعوتهم وهذا جاء كثيرًا في آيات الله كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم: ٩]، وكم مرة تكرر تشكيك الكفار في يوم القيامة والحساب وما أعد الله فيه من جنة ونار، وتسمع هذا التشكيك في قوله تعالى لست مرات في سور يونس والأنبياء والنمل وسبأ والملك ويس: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

لذا فالواجب من المؤمن أن يملك يقينًا وقولًا ثابتًا قائمًا على علم صحيح وأدلة وبراهين صحيحة تجاه دينه، وتجاه ما يتقرب به لربه ابتغاء مرضاته، وهذا الثبات من علامات الإيمان كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧]، والله عز وجل هو خير من يهدي قلب المؤمن ويثبته ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: ١٧٨]، ونحن نسأل الله أن يهدينا ويهدي بنا وأن يجعلنا هداة مهديين لا ضالين ولا مضلين.

أما منكر السنة فيعترض على ثقته في نقل سنة رسول الله ﷺ إلينا بأنه يجب علينا الشك كما شك إبراهيم عليه السلام، وأن الأحاديث عن رسول الله ﷺ ظنية الثبوت، واتباع الظن مذموم في كتاب الله، وسنستعرض سويًا الرد على هذه الادعاءات بإذن الله:

أولًا: الادعاء أن الشك أمر جيد، ودليل هذا شك إبراهيم عليه السلام، هذا ادعاء باطل من عدة وجوه:

الوجه الأول: ليس كل الشك محمود في كتاب الله، فكثير من الآيات ورد فيها الشك على لسان الكفار كقوله تعالى:

* ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم: ٩].

* ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَآ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴿٦٢﴾﴾ [هود: ٦٢].

* ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية: ٣١-٣٢].

والفارق واضح بين الشك المذموم الوارد في كتاب الله الوارد على لسان الكفار، والشك المنسوب لنبي الله إبراهيم عليه السلام، فالكفار شكهم موجه لرد الآيات والبراهين التي تأتيهم لرسلهم فيكون ردهم على رسلهم أننا نشك في صحة هذه الآيات؛ ولذلك مهما تأتهم آية يكذبوا بها، وهكذا لن يصلوا لأي إيمان ويقين في الله، وهذا ما وصفه الله عز وجل في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٠-١٥]، فالكفار لا يملكون ردًا على الآيات التي تأتيهم من عند الله إلا التشكيك في صحتها وردها بأي حجة، لدرجة أن الله عز وجل أخبرنا أنه لو فتح

لهم باب يعرجون فيه إلى السماء وينظرون بأعينهم سيردون بأنهم قد سحروا، وأنهم يشكون فيما رأت أعينهم!

أما ما نسب من شك لإبراهيم عليه السلام كان في سياق طلبه من الله أن يريه كيفية إحياء الموتى، وليس ردًا لدليل كما يفعل الكفار، ولما رأى ما أراد انتهى الموضوع، بعكس الكفار يطلبون دليلًا يوافق أهواءهم ثم لا يقتنعون ويطلبون غيره، وهكذا يستمرون في جحود الآيات، والصادق يكتفي بدليل واحد صحيح والكاذب لن يقتنع بألف دليل.

ونحن كم من دليل نقدمه على حجية السنة وفي الرد على الاعتراضات عليها، وماذا نجد في المقابل؟ مجرد إنكار للأدلة بدعوى الشك والظن؛ ولذلك يتبين لنا القائل بهذا القول أي شك يملك شك محمود أم شك مذموم؟

الوجه الثاني: لابد للشك أن يكون منهجيًا، فنحن حتى نقيم للشك وزنًا لابد أن يكون شكًا منهجيًا فيوضح لنا المعيار الذي حدثت فيه المخالفة، ويقيم أدلة صحيحة أو يوضح مثلًا الأدلة التي يطلبها حتى يزول الشك، ولو كان الشك بلا منهجية لن يزول أبدًا، ويكون مجرد إنكارٍ دون الوصول لحقيقة.

ومنكر السنة ماذا يفعل؟ يشكك دون أي معيارية، فتارة يقول أننا خالفنا آيات في كتاب الله حين اتبعنا السنة، ثم نجد أن المخالفة وقعت في فهمه، وأنه هو من خالف العشرات من الآيات، ولكنه لا يقيم لمخالفته اعتبارًا، ويحتج أن تفسيره للآيات هو الصحيح والجميع مخطئ، وهذا ليس إقامة آيات الله معيارًا، وإنما إقامة فهمه هو، وهذا ببساطة اسمه (اتباع للهوى)؛ ولهذا اتباع الهوى مذموم في كتاب الله.

وتارة منكر السنة يحتج بأدلة من الأحاديث ويرفض الاحتجاج بأدلة أخرى تزيل اعتراضه من الأحاديث، فهو إما أن يقبل كل الأحاديث ويعتبرها أدلة صحيحة فيقبل دليله ويقبل ما يعارضه، وإما يعتبر كل الأحاديث باطلة وهكذا هو من أبطل

دليله بنفسه وأراحنا من عناء الرد عليه أساسًا، أما أن يقبل ما يعجبه من الأحاديث ويرد ما لا يعجبه فهذا عين اتباع الهوى، وليس دليلًا يقوم به الشك في النفس، وأشهر مثال على ذلك: **حديث النهي عن كتابة الأحاديث**، دائمًا يحتج بها منكر السنة وفي نفس الوقت يرفض أحاديثًا صحيحة تأمر بكتابة حديث رسول الله ﷺ.

وتارة يُشكك في نقل الرجال وهو لا يعلم أن الرجال هم من نقلوا القرآن أيضًا، وطالما اعترف أن الرجال صح عنهم نقلهم للقرآن؛ إذن فهناك ما يمكن أن يصح عنهم في نقل غيره، ويتبقى فقط التأكد من صحة ما ينقلوه عبر ضوابط ومنهجية سليمة، وهذا هو صلب عمل المحدثين نقّاد الحديث والروايات الذين وضعوا ضوابط وشروط لصحة ما ينسب من أقوال لقائليها؛ وهكذا غياب معيارية صحيحة للشك يجعل هذا الشك في غير محله، وليس علينا أن نقيم له وزنًا.

ثانيًا: الاعتراض الخاص بأن الأحاديث ظنية وأن اتباع الظن مذموم، فهذا الاعتراض فاسد من وجوه:

الوجه الأول: ليس كل الظن مذموم في كتاب الله كما يدعي، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦]، فوصف الخاشعين أنهم يستعينون بالصبر والصلاة لماذا؟ لظنهم أنهم راجعون إلى ربهم وسيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم، وهذا ما أكّده قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ٢٢﴾ [الحاقة: ١٩-٢٢].

الوجه الثاني: الظن مراتب وما ترجح صحته أوجب العمل به:

دليلنا أن الظن مراتب هو أن من الظن ما هو مذموم ومنه ما هو ليس بمذموم، والظن المذموم هو العاري عن الدليل الصحيح، لذلك الذم جاء لعدم وجود دليل وبرهان يقيم العلم الصحيح، كما قال تعالى في سورة الجاثية: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا

حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

أما لو وجد الدليل والبرهان الصحيح فالظن يرتقي لما يجعله يقترب من مراتب اليقين، وعليه يجب العلم، وعليه يكون الدليل هو الحجة بين يدي الله حين نقف للحساب، كما سبق وذكرنا قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٤٦-٤٧]، فأمر الخاشعين أن يستعينوا بالصبر والصلاة لماذا؟ لأن الله عز وجل أعطانا البراهين والأدلة العديدة على وجود يوم للقيامة وللحساب بين يديه، ووجود جنة ونار وثواب وعقاب؛ وعليه فيجب عليهم أن يعملوا ويستعدوا لهذا اليوم كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١].

الوجه الثالث: البشرية أجمع لم تعارض العمل بالظن الذي معه قرائن على صحته، ولعل أكبر دليل على هذا (الأنساب)؛ فالبشرية أجمعت على نسب الابن لأبيه لمجرد وجود قرائن على صحة هذا النسب، ويكتفون في هذه القرائن بمجرد (ادعاءات)، وجميعنا نحمل أنسابنا وأسماءنا بهذه الطريقة، ومعلوم أهمية الأنساب وعليها يترتب حقوق المواريث؛ لذا فالقول أن الظن المحتفي بالقرائن على صحته لا يوجب العمل هذا قول عار من الصحة.

وهذا يأخذنا للفصل الثاني الذي نستعرض فيه عملية النقد التي تمت للمرويات، وهذا النقد هو الحجة التي نحتج بها أمام الله عز وجل حين نُسأل عن سبب اتباعنا لهذه المرويات، ونسأل الله العافية.

* هذا والله تعالى أعلى وأعلم *

ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ
٤٦

التفسير الميسر

الذين يخشون الله ويرجون ما عنده، ويوقنون أنهم ملاقو ربِّهم جلَّ وعلا بعد الموت، وأنهم إليه راجعون يوم القيامة للحساب والجزاء.

الفصل الثاني

نقد المرويات

الفصل الثاني
نقد المرويات

تمهيد

من فضل الله على هذه الأمة أنّ المرويات التي نقلت إلينا عبر الأجيال لم تُنقل مجردةً، وإنما تعرضت للنقد والبحث والتمحيص مراتٍ ومراتٍ من قِبل علماء أفنوا حياتهم في تتبع هذه المرويات للبحث في صحيحها من سقيمها في ظروفٍ ليست بالسهلة، تطلبت منهم الترحال والسفر لمسافاتٍ طويلةٍ ولأسابيع وربما لشهور بل ولسنوات عديدة، وكل هذا انطلاقًا من إيمانهم بأهمية هذه المرويات والموروث الديني عن رسول الله ﷺ، وأهمية وجود الوحي صافيًا لينهل منه المسلمون متى شاءوا، وحتى لا يفوتهم من الوحي شيءٌ، ولا يفوتهم أجر العمل به، ولكي لا يكونوا في حيرة من أمرهم زودهم بالأدلة والحجج التي يستطيعون بها تمييز ما هو حقٌ من الوحي وما أُدخل عليه بقصد أو بغير قصد، فجزاهم الله عن هذه الأمة خير الجزاء.

وهذا مما تمتاز به أمتنا عن سائر الأمم فنحن نمتلك موروثًا دينيًا تعرض للنقد بالفعل، وعمليات النقد هذه مثلت سياجًا منيعًا كي لا يدخل في الوحي ما ليس فيه، ويعلم صحة ما ينسب لأي أحد قال قولًا في دين الله منذ عهد رسول الله ﷺ، فنحن نملك دليلًا على أنه قال ذلك أو لم يقله، وهذا الأمر بدأ مبكرًا منذ القرون الأولى بعد وفاة النبي ﷺ، ولنا الحق أن نفتخر به بين سائر الأمم، وأن نريهم كم أن لدينا تراثًا عظيمًا قائمًا على منهجيةٍ علميةٍ قويةٍ لم تمتلكها أي أمة من الأمم من قبلنا، وأشاد مؤرخون من غير المسلمين بهذه المنهجية كما سيأتي ذكره لاحقًا فلله الحمد والمنة.

المبحث الأول

موثوقية عملية نقد المرويات

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن: هل عمليات النقد التي تمت للمرويات هذه موثوقة؟ وكيف لنا أن نثق فيها؟

وحتى نعرف مدى تفوق المنهج النقدي الذي انتهجه نقّاد الحديث والمرويات؛ فإننا سنقارنه بمناهج النقد المتعارف عليها في وقتنا هذا ويعرفها الباحثون، ولعل من أشهرها (المنهج التاريخي الاستردادي)، وأهم المؤلفات في هذا المنهج كانت على يد العالمين الفرنسيين (لانجلو) و(سينوبوس) اللذين تقاسما كتابة (المدخل إلى الدراسات التاريخية)، وظهرت الطبعة الأولى منه عام ١٨٩٨م، ونقله إلى العربية د. عبد الرحمن بدوي وطبع في القاهرة عام ١٩٦٣م، ويعد من أهم الكتب الغربية في هذا الشأن، وقد عالج الكتاب –كما جاء في مقدمته– شروط المعرفة في التاريخ، وعلاماتها وخصائصها وحدودها، وعرف الوثيقة التاريخية وحددها، وكيف تعالج الوثائق من أجل الإفادة منها في التاريخ؟ وما هي الوقائع التاريخية؟ كيف تجمع لتشييد العمل التاريخي؟

وصاغ المؤرخ والباحث التاريخي (أسد رستم) –وهو غير مسلم– المنهج الاستردادي التاريخي بأسلوب تأثر فيه بأسلوب المحدثين المسلمين إلى الدرجة التي أطلق فيها اسم كتابه متأثرًا بكتبهم فسماه (مصطلح التاريخ) متأثرًا بكتب (مصطلح الحديث) بعد أن قرأ رسالة للقاضي عياض باسم "تحري الرواية والمجيء باللفظ" في المكتبة الظاهرية في دمشق، وطبع كتابه (مصطلح التاريخ) أول مرة عام ١٩٣٩م، وقال أسد رستم في كتابه ص ١٢ مثنيًا على جهود المحدثين: "لو اطلع مؤرخو أوروبا في العصور الحديثة على مصنفات الأئمة المحدثين لما تأخروا في تأسيس علم الميثودولوجيا حتى أواخر القرن الماضي"، وهذه شهادة من

متخصص غير مسلم، وليس له مصلحة في مدح علماء المسلمين وجهودهم، وأورد اقتباسًا من كتابه:

والواقع أن المثودولوجيا الغربية التي تظهر اليوم لأول مرة بثوب عربي، ليست غريبة عن علم مصطلح الحديث، بل تمتُّ إليه بصلة قوية؛ فالتاريخ دراية أولا ثم رواية، كما أن الحديث دراية ورواية. وبعض القواعد التي وضعها الأئمة منذ قرون عديدة للتوصل إلى الحقيقة في الحديث، تتفق في جوهرها وبعض الأنظمة التي أقرها علماء أوربا فيما بعد في بناء علم المثودولوجيا، ولو أن مؤرخي أوربا في العصور الحديثة اطلعوا على مصنفات الأئمة المحدِّثين، لما تأخروا في تأسيس علم المثودولوجيا حتى أواخر القرن الماضي. مصطلح التاريخ، أسد رستم، ص (٤٧)

وبإمكاننا أن نصارح زملاءنا في الغرب، فنؤكد لهم بأن ما يفاخرون به من هذا القبيل، نشأ وترعرع في بلادنا، ونحن أحق الناس بتعليمه والعمل بأسسه وقواعده.

ونستعرض تزكية أخرى لمنهج المحدثين من مؤرخين غير مسلمين:

القس المستشرق الإنجليزي (دافيد صموئيل مرجليوث) ١٨٥٨م – ١٩٤٠م، أحد كبار المستشرقين وأستاذ اللغة والآداب العربية بجامعة oxford، وأحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، وبالرغم من تعصبه وعدائه الشديد –والشهير– للإسلام إلا أنه لم يتمالك نفسه من عظمة دِقَّة النقل الإسلامي للأحاديث والروايات وتاريخ السيرة إذ يقول في كتابهlecturers on arabic historians ص٢٠ كما نقتبس من كتابه: ما هو المنهج التاريخي الاسترادي؟

الخطوة الأولى في المنهج الاستردادي هي البحث عن الوثائق، وجمع ما يمكن جمعه من الوثائق باختلاف أنواعها (آثار– نقوش– مخلفات خطية– روايات)، كل ما وصل إلينا عبر الزمن يحكي عن وقائع تاريخية.

But though the theory of the *Isnad* has occasioned endless trouble, owing to the inquiries which have to be made into the trustworthiness of each transmitter, and the fabrication of traditions was a familiar and at times easily tolerated practice, its value in making for accuracy cannot be questioned, and the Muslims are justified in taking pride in their science of tradition.

"ورغم أن نظرية الإسناد قد أوجبت الكثير من المتاعب، نظرًا لما يتطلبه البحث في ثقة كل راو، ولأن وضع الأحاديث كان أمرًا معهودًا وجرى التسامح معه بسهولة أحيانًا، إلا أن قيمتها (نظرية الإسناد) في تحقيق الدقة لا يمكن الشك فيها، والمسلمون محقون في الفخر بعلم حديثهم"

(مارجيلوث؛ محاضرات عن المؤرخين العرب ***Lectures on Arabic Historians*** ، ١٩٣٠م، ص٢٠)

ثم يبدأ في عملية نقد تلك الوثائق حتى يصل لصورة صحيحة عن تلك الواقعة التاريخية من خلال:

١- اختيار وثائق وشواهد صالحة للدراسة.

٢- القيام بالنقد الخارجي أو الظاهري أو النقد التحصيلي للوثائق.

٣- القيام بالنقد الباطني للوثائق، وتفسير محتواها والبيئة التي أحاطت بها لتلافي أي عملية كذب أو خطأ خفية وقعت فيها.

أي أن المؤرخ يسعى إلى امتلاك الأدلة الكافية على إثبات الوقائع التاريخية أو النقاط المعرفية، ومن ثم يجمع بين النقاط المتجانسة، ويربط بينها ليكوّن معرفة تاريخية متكاملة؛ ولهذا كلما كان التاريخ الذي يبحث فيه المؤرخ غنيًا بالشواهد والوثائق والروايات كلما سهل من عمله، ونتج عنه معرفة دقيقة، وكلما شحت الوثائق كلما قلت المعرفة الناتجة.

ومن أدبيات المنهج الاسترادادي أيضًا مراعاة طبيعة التاريخ الذي يتم البحث فيه، وامتلاك الأدوات المناسبة له، فمثلًا التاريخ المصري القديم يحتاج للمعرفة باللغة المصرية القديمة، وكذلك الروماني واليوناني والعربي.

والنقد الخارجي في المنهج الاسترادادي ينقسم إلى قسمين:

- نقد الاستعادة أو التصحيح (للتأكد أن الوثيقة كما تركها المصدر).
- نقد المصدر نفسه وهل هو موثوق للأخذ منه؟

وأما النقد الباطني فهو النقد الحقيقي؛ لأنه يتوجه للتأكد من ضبط المصدر (الذي قد يكون شاهد عيان أو ناقل عن غيره) وأنه ضبط المعلومة في أثناء ثلاث مراحل مهمة وهي:

- تلقي أو معاينة الحدث.
- ضبط الحدث بعد ذلك (أو حفظه).
- ثم مرحلة أدائه أو كتابته للوثيقة.

وينقسم النقد الباطني إلى قسمين:

أ- نقد التفسير أو التدقيق في المعنى الذي أراده المصدر (تفسير الوثيقة تفسيرًا صحيحًا).

ب- النقد السلبي ويقصدون به التحري الدقيق لاستخراج أي أسباب خفية كالكذب أو الخطأ في الوثيقة، وهذا الجزء هو الأصعب؛ لأنه يتطلب جمع للكثير من النقاط المعرفية والمقارنة بينها.

منهج المحدثين

إذا قمنا بعرض أدبيات منهج المحدثين على أدبيات المنهج الاستردادي سنجد أن منهج المحدثين بالغ الدقة لما يملكه من وثائق غزيرة، سواء روايات شفهية أو وثائق مكتوبة ونستعرض مقارنة سريعة بينهما:

الوثائق: هي الروايات سواء شفهية أو مكتوبة، والتي كانت موجودة بغزارة في كل البقاع والأمصار الإسلامية.

المصدر: هو الراوي أو سلسلة الرواة.

النقد الخارجي:

القسم الأول (نقد التصحيح): عند المحدثين هو إثبات وجود الرواية من المصدر أو الراوي، وتتبع سلسلة الرواة، والتأكد من اتصال الإسناد، وعدم وجود انقطاع أو تدليس.

القسم الثاني (نقد المصدر): عند المحدثين هو التأكد من أن الراوي ثقة (عدالة الراوي) يؤخذ منه الراوية، وأنه أخذ الرواية من شيخه بطريقة سليمة، وهنا امتاز التراث الإسلامي بوجود كتب الجرح والتعديل، والتي توفر قاعدة بيانات غزيرة عن جميع الرواة، وتعددت هذه الكتب بشكل يسهل عليك البحث عن أي راوي بما يوفر معرفة المشهور منهم والمجهول وشيوخهم وتلاميذهم، ويسهل عملية الحكم على المصدر.

النقد الباطني:

القسم الأول (نقد التفسير): عند المحدثين التحقق من المعنى الذي أراده الراوي، وهل روى الرواية مختصرة أو روى جزءًا منها وهكذا.

القسم الثاني (النقد السلبي): التأكد من أن الراوي لم يغير من الرواية شيئًا متعمدًا أو بغير عمد، وعند المحدثين علم العلل الذي يقوم بجمع المرويات ومقارنتها،

وساعد وجود مرويات كثيرة وطرق عديدة للمتن الواحد –بسبب اهتمام المسلمين بتلقي علوم الوحي– فساعد هذا من عملية النقد الباطني للمتن الواحد من خلال جمع طرقه ورواياته من أفواه رواةٍ مختلفين، وهذا جعل نتائج النقد للمتن دقيقة ويمكن الوثوق بها.

وبهذا يتبين لنا أن مناهج النقد الحديثي التي سار عليها المحدثون لا تقل بل ونستطيع القول إنها تفوقت على المناهج الحديثة للنقد التاريخي، وأن وجود قاعدة غزيرة من المرويات والوثائق ساعد على الحصول على نتائج دقيقة يمكن الوثوق بها، فلله الحمد والمنَّة على ما منَّ به على هذه الأمة من وجود مثل هذه الجهود، والتي زادت من ثقتنا في عملية نقل الدين إلينا.

للمزيد بخصوص هذا الشأن يرجى مراجعة كتاب المنهج النقدي عند المحدثين للدكتور/ عبد الرحمن السلمي.

المبحث الثاني

ما هي المرويات؟

نقصد بالمرويات كامل ما روي في دين الله بدءًا من كلام الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التوبة: ٦]، وكلام الله نزل به الروح الأمين على رسولنا ﷺ، ليكون للعالمين نذيرًا كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، وقال أيضًا: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١].

أي أن لا أحد أوحى له القرآن إلا رسولنا ﷺ، ونحن لم نرَ الرسول ﷺ إذن فعلينا أن نسأل كيف انتقل القرآن من الرسول ﷺ إلينا؟

اسمع لقاعدة منطقية نقلها لنا القرآن الكريم حين تكون متأكدًا أن الذي أمامك لم يسمع الكلام (بنفسه) فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾ [التحريم: ٣]، ففي الآية زوجة رسولنا الكريم ﷺ كانت متأكدة أنه لم يسمع الحديث بنفسه فيما يبدو لها فسألت السؤال المنطقي: {من أنبأك هذا؟}، وأقرّها الرسول ﷺ على صحة سؤالها بأن أجابها: {نبأني العليم الخبير}.

ونحن إن لم نسمع بأنفسنا الكلام فلابد لنا من ناقل للكلام، وما أجمل الوصف الذي وصفه القرآن الكريم لمن ينقله ويحفظه فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ

بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَـٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٧-٤٩].

فالقرآن أقرّ بأن الآيات تُحفظ {في صدور الذين أوتوا العلم}، وفي هذا رد على الدعاة بأن القرآن لو شاء الله أن تحفظه الشياطين لحفظته، فالله عز وجل حدد لنا من يحفظ آياته، وقال هم أولوا العلم، وهذه بالمناسبة سنة الله، حتى في من قبلنا كان العلماء الربانيون هم من يعلمون الناس كتاب الله وليس الشياطين أو أي أحد كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، فالتوراة أوكل الله حفظها للربانيين والأحبار {بما استحفظوا من كتاب الله} وكذلك القرآن حفظه الله {في صدور الذين أوتوا العلم} ومن المعروف أن العلم يشرف بشرف المعلوم؛ لذا فالعلم بالله وكلامه هو أشرف ما يمكن للمرء أن يتعلمه.

وأيضًا أخبرنا القرآن بقاعدة أخرى في وصف من ينقل لنا الأخبار والروايات فقال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦]، فأخبرنا عز وجل أن نتبين من خبر (الفاسق) وهنا لنا وقفات:

الأولى: أن القرآن وصف ناقل الخبر (فاسق)، وهذا يدل على أننا وجب علينا أن نتبين من صفات ناقل الخبر، وأنها ستكون قابلة للتحديد وإلا لما كان ذكرها الله عز وجل، وهذا أمر معلوم ويمارسه الناس في حياتهم اليومية، فمن أراد

خطبة فتاة تجد أهل الفتاة أول ما يفعلون يسألون عن صفاته الظاهرية في المنطقة التي يعيش فيها فصفاته تظهر لمن حوله، ولهذا فالتحقق من الصفات لناقل الخبر أمر ممكن.

الأمر الثاني: أن لو كان ناقل الخبر (غير فاسق) فخبره يمكن قبوله.

والأمر الثالث: أنه حتى خبر الفاسق كما أخبرت الآية يقبل بعد التبين وظهور قرائن تجعلنا نقبله.

والأمر الأخير: ناقل الخبر شخص واحد (فاسق)، لذا فخبر الواحد يمكن قبوله بعد ظهور الأدلة.

وعلى كل مسلم أن يكون لديه اليقين في صحة نقل القرآن، فنحن لا نفتري ولا نختلق أوهامًا أن هذا كلام الله، وإنما لدينا الأدلة الثابتة الصحيحة بما لا يدع مجالًا للشك أن القرآن الذي بين أيدينا هو ما نزل على رسول الله ﷺ وتم حفظه ونقله بطريقين:

حفظ في السطور: منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم، ويكفي إجماع الأمة في شتى بقاع الأرض وعلى مر العصور على صحة جمع الخليفة عثمان رضي الله عنه للمصحف، وهو نفسه الذي بين أيدينا منذ عصره.

الطريق الثاني لحفظ القرآن هو حفظه في الصدور: وهو ما وصفه الله عز وجل في سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩﴾ [العنكبوت: ٤٧-٤٩].

وما يعنيني من ذكر القرآن كأول وأهم المرويات بسبب أهمية رواية القرآن، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨﴾ [القيامة: ١٨]، فكما هو معروف أن القرآن

بلسان عربي مبين، واللسان العربي تتغير فيه المعاني بمجرد اختلاف تشكيل الحروف، مثلًا قوله تعالى: ﴿...إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ... ﴾ [فاطر: ٢٨]، فإن تغيير موضع الفتح والضم في الآية يغير من الفاعل إلى مفعول به ويغير معنى الآية تمامًا، وهنا يبرز أهمية علم القراءات، وهو مبحث يهتم بمعرفة القراءات الثابتة الصحيحة عن رسول الله ﷺ حتى يكون فهمنا لمراد الله فهمًا صحيحًا كما أراد الله عز وجل.

وحتى نعلم أهمية علم القراءات نستعرض سويًا آيتين لهما نفس الرسم في المصحف، ويختلفان تمامًا في النطق، قوله تعالى: {الم} في افتتاحية بعض السور كسورة البقرة أو آل عمران تُقرأ حروفًا متفرقةً فتصبح ثلاث كلمات: (ألف لام ميم)، وقوله تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} في افتتاحية سورة الانشراح تُقرأ كلمة واحدة مجتمعة (ألم)؛ ولله الحكمة البالغة ينزل ما يشاء من كلماته، ويأمرنا أن نقرأها كما يشاء، وليس لنا إلا اتباع أوامره ونقول سمعنا وأطعنا.

وبالنظر إلى علم القراءات؛ سنجد أن تقسيم القراءات هو نفس تقسيم الأحاديث؛ وهذا لأنه طبق عليها نفس منهجية نقد المرويات.

نبدأ **بالقراءة المتواترة اصطلاحًا هي:** القراءة التي رواها جمع عن جمع، يستحيل تواطؤهم على الكذب، وكانت موافقة للرسم العثماني، ووافقت العربية ولو بوجه من وجوه اللغة، ويدخل في هذا النوع قراءات الأئمة السبعة المتواترة، جاء في "منجد المقرئين لابن الجزري": «كل قراءة وافقت العربية مطلقًا، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديرًا، وتواتر نقلها، هذه القراءة المتواترة المقطوع بها» انتهى.

والقراءة المشهورة في الاصطلاح: هي القراءة التي صح سندها، وبلغت مبلغ الشهرة، ووافقت العربية ولو بوجه من وجوهها، ووافقت الرسم العثماني، إلا أنها لم تبلغ درجة التواتر، قال ابن الجزري أيضًا: «وأما القراءة الصحيحة فهي على

قسمين: الأول ما صح سنده بنقل العدل الضابط، عن الضابط كذا إلى منتهاه، ووافق العربية، والرسم، وهذا على ضربين: ضرب استفاض نقله، وتلقاه الأئمة بالقبول، كما انفرد به بعض الرواة، وبعض الكتب المعتبرة، أو كمراتب القراء في المد ونحو ذلك، فهذا صحيح مقطوع به أنه منزل على النبي ﷺ من الأحرف السبعة، كما نبين حكم المتلقي بالقبول، وهذا الضرب يلحق بالقراءة المتواترة، وإن لم يبلغ مبلغها» انتهى.

والقراءة الشاذة: كل قراءة خالفت الرسم العثماني، ولو صح سندها، ووافقت العربية، ويمثل لهذا النوع من القراءات بقراءة ابن مسعود- رضي الله عنه- لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨]، إذ قرأ بدل: {أيديهما} (أيمانهما)، وقراءته أيضًا لقوله تعالى: ﴿... فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ...﴾ [المائدة: ٨٩] بزيادة (متتابعات) **وقراءة عائشة رضي الله عنها لقوله تعالى:** ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ...﴾ [البقرة: ٢٣٨]، إذ قرأت الآية: (والوسطى صلاة العصر)، وكقراءة ابن عباس- رضي الله عنهما- لقوله تعالى: ﴿...وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] حيث قرأها: (وكان أمامهم ملك)، قال ابن الجزري بعد أن ذكر نحو هذه الأمثلة: «فهذه القراءة تسمى اليوم شاذة، لكونها شذت عن رسم المصحف المجمع عليه، وإن كان إسنادها صحيحًا» انتهى.

وقد تكون القراءة صحيحة الإسناد إلى النبي ﷺ لكنها مخالفة لرسم المصحف العثماني، فتكون شاذة كما ذكرنا قريبًا في تعريف القراءة الشاذة.

والقراءات التي صح سندها عن النبي عليه الصلاة والسلام لا يوجد فيها شيء مخالف للغة العرب من كل وجه -حسب علمنا- وكيف يكون ذلك وهو أفصح العرب؟

وقد يكون الأمر مختلفًا قليلًا بالنسبة للأحاديث؛ لأن القرآن جمعت حروفه في مصحف مبكرًا فانصب الاهتمام على معرفة القراءة وإثباتها عن طريق إسنادها لثقة أخذت منه يقرؤها بطريقة صحيحة، أخذها عن ثقة مثله وإلى يومنا هذا يوجد إسناد متصل للقراءات يصل بنا لرسول الله ﷺ، وقد يظن البعض أنه لا حاجة لقراءة القرآن بسند صحيح فلدينا المصحف به القرآن ضبط تشكيل حروفه، ولكن دعني أخبرك أن حتى هذا التشكيل ضبط وفق رواية صحيحة بسند صحيح متصل يصل لرسول الله ﷺ، وستجد أغلب المطابع تورد هذا السند في نهاية المصحف كما هو موضح في هذه الصورة على سبيل المثال.

بسم الله الرحمن الرحيم

رواية هذا المصحف

ومصطلحات رسمه وضبطه وعدّ آيه

كُتِبَ هذا المصحف الكريم، وضُبِطَ على ما يوافق رواية حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدي الكوفي لقراءة عاصم بن أبي النجود الكوفي التابعي عن أبي عبد الرحمن عبد الله ابن حبيب السُّلَمي عن عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وأبي ابن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وأُخِذَ هجاؤه مما رواه علماءُ الرسم عن المصاحف التي بعث بها الخليفةُ الراشدُ عثمانُ بن عفان «رضي الله عنه» إلى مكة، والبصرة، والكوفة، والشام، والمصحف الذي جعله لأهل المدينة، والمصحف الذي اختص به نفسه، وعن المصاحف المُنْتَسَخة منها، وقد رُوعِيَ في ذلك ما نقله الشيخان: أبو عمرو الداني، وأبو داود سليمان بن نجاح مع ترجيح الثاني عند الاختلاف غالبًا، وقد يُؤخذ بقول غيرهما.

هذا، وكلُّ حرفٍ من حروف هذا المصحف مُوافقٌ لنظيره في المصاحف العثمانية السابق ذكرها.

وأُخِذَتْ طريقةُ ضبطه مما قرره علماءُ الضبط على حسب ما ورد في كتاب «الطراز على ضبط الخراز» للإمام التنسي، وغيره من الكتب، مع الأخذ بعلامات

أما الأحاديث فتصف لنا مشاهد حياة الرسول ﷺ كاملة ليكون لنا أسوة حسنة نقتدي به حتى نحقق قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب: ٢١]، لذا الأحاديث تحمل السند أو الرجال مصدر الكلام بالإضافة إلى الكلام الذي نقلوه، ومع تقدم الزمن وتشعب النقلة في بقاع الأرض مع اتساع الرقعة الإسلامية ظهرت الحاجة لنقد هذا الكلام نقدًا دقيقًا حتى يعلم الصادق ممن يفتري كذبًا على الله ورسوله، وهذا مما امتاز به ديننا حدوث النقد المبكر لكل ما نسب لله ورسوله، ونقل لنا هذا النقد كما نقل لنا الكلام، فلله الحمد والمنة، وجزى الله علماءنا ورجالنا الذين تفرغوا للتدقيق في هذه المرويات حتى يحموا بيضة هذا الدين؛ ليصل للأجيال المتعاقبة وتثق الناس في دينها الذي تتعبد به إلى الله عز وجل.

المبحث الثالث

نقد الحديث

أرسل الله عز وجل رسوله ﷺ ليكون للعالمين نذيرًا كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال أيضًا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وتوفي رسول الله ﷺ، ولم تكن رسالة الإسلام وصلت لكل الناس كافة، فما كان من صحابته رضوان الله عليهم إلا أنهم حملوا أمانة التبليغ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فانطلقوا في مشارق الأرض ومغاربها يحملون أمانة البلاغ للناس كافة ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، وليعرفوهم على أفضل خير وهو رسالة الإسلام، ويحذرونهم من الكفر بالله وما أعده لعباده الكافرين كما قال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾ [إبراهيم: ١-٢].

فبلغت رسالة الإسلام إلى أقاصي الدنيا وبدأ الناس يتعرفون عليه، وكان من أهم ما يهمهم معرفة كل صغيرة وكبيرة عن معلم الناس الخير الذي أرسله الله رحمةً للعالمين، أرادوا أن يتعرفوا على تعاليمه وهديه، وكيف كان هو يفهم كتاب الله ويطبقه؛ لأنه يأتيه الوحي وأرسله الله عز وجل ليعلم الناس الكتاب والإيمان كما

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢].

فبدأ الصحابة بنقل كلام الله عز وجل للناس، وكذلك نقلوا أحاديث رسول الله ﷺ وتعاليمه، وكان منهم المكثر في التحديث ومن التف حوله الناس، وكان منهم المقل، ولعل أبا هريرة من أشهر المكثرين في التحديث عن رسول الله ﷺ، وقد ذكر حديثًا أخرجه البخاري في صحيحه، يوضح لنا سببًا من أسباب هذا التنوع، ويذكر لماذا كان منهم من يحدث عن رسول الله ويكثر، فقال أبو هريرة رضي الله عنه: «إنَّ النَّاسَ يقولونَ أكْثَرَ أبو هُرَيْرَةَ، ولَوْلَا آيَتَانِ في كِتَابِ اللَّهِ ما حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩ ﴾ [البقرة: ١٥٩] إلى قَوْلِهِ: ﴿ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٠﴾ [البقرة: ١٦٠]، إنَّ إخْوَانَنَا مِنَ المُهَاجِرِينَ كانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بالأسْوَاقِ، وإنَّ إخْوَانَنَا مِنَ الأنْصَارِ كانَ يَشْغَلُهُمُ العَمَلُ في أمْوَالِهِمْ، وإنَّ أبَا هُرَيْرَةَ كانَ يَلْزَمُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ بشِبَعِ بَطْنِهِ، ويَحْضُرُ ما لا يَحْضُرُونَ، ويَحْفَظُ ما لا يَحْفَظُونَ».

وفي هذا الحديث ذكر لنا سبب اتساع علمه عن رسول الله ﷺ؛ أنه كان ملازمًا له فحضر ما لم يحضر غيره وحفظ ما لم يحفظ غيره من الصحابة، وذكر سببًا من أسباب قلة تحديث غيره من الصحابة؛ أنهم كانوا في مشاغلهم الدنيوية والعمل في أموالهم والصفق في الأسواق، وذكر سبب تقدمه للتحديث عن رسول الله ﷺ؛ وهو مخافة أن يكون ممن يكتمون العلم فيدخل في وعيد الله عز وجل الذي ذكره في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩﴾ [البقرة: ١٥٩].

وكذلك من الأسباب الرئيسية في كثرة الأحاديث الواردة لنا من طريق أبي هريرة تأخر وفاته، مما جعل له تلاميذ كثر، وعاش لزمن الفتن، وبدأ التوسع في نقد

الروايات وحفظ الطرق التي تم التأكد من صحتها، والتخلي عن الروايات التي تعذر التأكد من صحتها، وبالمناسبة أبو هريرة كان يحفظ القرآن ويعلمه، وذكره ابن الجزري وهو يترجم لقراء القرآن، قال ابن الجزري بعد أن ساق سنده إلى نافع (أحد القراء وهو شيخ ورش وقالون): أنه قرأ على الأعرج، وإن الأعرج قال: قرأت على أبي هريرة، وأن أبا هريرة قال: قرأت على أُبي بن كعب، قال: وقال أُبي: عرض عليَّ النبي ﷺ القرآن، وقال: «أمرني جبريل أن أقرأ عليك القرآن»، وذكر ذلك في غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٣١).

والكلام عن أبي هريرة يطول، ولكن أحببت أن أؤكد على نقطة مهمة وهي: أن الدين نقل جملة واحدة، وصحابة رسول الله ﷺ كانوا يعلمون حديث رسول الله كما كانوا يعلمون كتاب الله عز وجل.

نقد الأحاديث في زمن الصحابة

في زمن الصحابة كان الصحابة يتأكدون من صحة الحديث عن رسول الله ﷺ فيطلبون من الراوي أن يحضر شاهدًا غيره سمع الحديث عن رسول الله ﷺ، أخرج مالك في موطأه حديث ميراث الجدة: «جاءتِ الجَدَّةُ إلى أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ تَسألُه ميراثَها، فقال: ما لكِ في كتابِ اللهِ تعالى شيءٌ، وما عَلِمتُ لك في سُنَّةِ نبيِّ اللهِ ﷺ شيئًا، فارجِعي حتى أَسأَلَ الناسَ، فسأَل الناسَ، فقال المُغيرةُ بنُ شُعبةَ: حضَرتُ رسولَ اللهِ ﷺ أَعطاها السُّدسَ، فقال أبو بَكْرٍ: هل معك غيرُك؟ فقامَ محمَّدُ بنُ مَسلَمةَ، فقال مِثلَ ما قال المُغيرةُ بنُ شُعبةَ، فأَنفَذَه لها أبو بَكْرٍ»، فانظر كيف أن أبا بكر طلب البينة من المغيرة بن شعبة حتى يتأكد من صحة ما سمع.

وكذلك أخرج البخاري في صحيحه عن عبيد بن عمير قال: «أنَّ أبا مُوسَى الأشْعَرِيَّ اسْتَأْذَنَ علَى عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عنْه، فَلَمْ يُؤْذَنْ له، وكَأنَّهُ كانَ مَشْغُولًا، فَرَجَعَ أبو مُوسَى، فَفَرَغَ عُمَرُ، فقالَ: ألَمْ أسْمَعْ صَوْتَ عبدِ اللَّهِ بنِ قَيْسٍ؟ ائْذَنُوا له، قيلَ: قدْ رَجَعَ، فَدَعاهُ فقالَ: كُنَّا نُؤْمَرُ بذلكَ، فقالَ: تَأْتِينِي علَى ذلكَ بالبَيِّنَةِ، فانْطَلَقَ إلى مَجْلِسِ الأنْصارِ، فَسَألَهُمْ، فقالوا: لا يَشْهَدُ لكَ علَى هذا إلَّا أصْغَرُنا؛ أبو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ، فَذَهَبَ بأَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، فقالَ عُمَرُ: أَخَفِيَ هذا عَلَيَّ مِن أمْرِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ؟! ألْهانِي الصَّفْقُ بالأسْواقِ، يَعْنِي الخُرُوجَ إلى تِجارَةٍ».

وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا ساورهم الشك في حديث لم يسمعوه من رسول الله ﷺ يسارعون في طلب البينة على صحة سماع من يدعي سماعه من رسول الله ﷺ، ومر الزمن وظهرت الفتن، وبدأ يظهر الكذب على رسول الله، وبدأ الصحابة يسمعون كلامًا لم يعهدوه على رسول الله ﷺ، فاسمع لهذا الحديث الذي أورده الإمام مسلم في صحيحه (المقدمة ص ١٥): «جاءَ بُشيرٌ العَدَوِيُّ إلى ابْنِ عبَّاسٍ، فَجَعَلَ يُحَدِّثُ، ويقولُ: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ، فَجَعَلَ ابنُ عبَّاسٍ لا يَأْذَنُ لِحَديثِهِ، ولا يَنْظُرُ إلَيْهِ، فقالَ: يا ابْنَ عبَّاسٍ، مالِي لا أراكَ تَسْمَعُ لِحَديثِي، أُحَدِّثُكَ عن رَسولِ اللهِ ﷺ، ولا تَسْمَعُ، فقالَ ابنُ عبَّاسٍ: إنَّا كُنَّا مَرَّةً إذا سَمِعْنا رَجُلًا يقولُ: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ، ابْتَدَرَتْهُ أبْصارُنا، وأَصْغَيْنا إلَيْهِ بآذانِنا، فَلَمَّا رَكِبَ النَّاسُ الصَّعْبَ والذَّلُولَ، لَمْ نَأْخُذْ مِنَ النَّاسِ إلَّا ما نَعْرِفُ».

وفي هذا الحديث ضرب ابن عباس مثلًا لبشير العدوي، يبين له سبب استنكاره لجرأته على التحديث عن رسول الله ﷺ، فقال له: ركب الناس الصعب والذلول، أي الإبل الصعب ركوبها والسهل ركوبها، وهو يقصد سلوك الناس كل مسلك واختلاط الأمر عليهم، بعد أن كان الناس يحدثون بحذر عن رسول الله ﷺ، ولهذا

لما ظهر هذا الاختلاط توخى الصحابة الحذر وتوقفوا ولم يأخذوا إلا ما يعرفون.

ثم بدأ السؤال صراحة عن ناقل الخبر، أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابنِ سيرين، قال: «لم يكونوا يسألونَ عن الإسنادِ، فلمَّا وقَعَت الفتنةُ قالوا: سمُّوا لنا رجالَكم، فيُنظَرُ إلى أهلِ السُّنَّةِ فيُؤخَذُ حديثُهم، ويُنظَرُ إلى أهلِ البِدَعِ فلا يؤخَذُ حديثُهم»، وهنا بدأ ظهور الإسناد والسؤال عن الرجال صراحة لمعرفة ناقل الخبر، وهل هو فعلا ثقة يؤخذ منه؟ وهل سمع هذا الخبر أم لا؟ وجاء بعد ذلك عمر بن عبد العزيز وأراد جمع السنة وتدوينها حتى لا تضيع مع تقدم الزمن.

الدافع لتدوين الأحاديث في دواوين

١- صيانة الحديث من أن يختلط الصحيح بالموضوع (المكذوب).

يُروى عن الزهري (كما جاء في تقييد العلم ص ١٠٨): «لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها لا نعرفها، ما كتبت حديثًا ولا أذنت في كتابته».

٢- الخوف على الحديث من الضياع بموت علمائه ورواته.

ورد في كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد بن حزم (كما ذكر البخاري في صحيحه –هامش فتح الباري– ١/١٩٤) أنه قال: «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء».

ثم بعد ذلك بدأ ظهور المصنفات، وكان ممن صنف وبوب مبكرًا في القرن الثاني الهجري:

* الربيع بن صبيح السعدي مولاهم (ت ١٦٠ هجري).
* سعيد بن أبي عروبة بالبصرة (ت ١٥٦).
* معمر بن راشد الأزدي باليمن (ت ١٥٣).

* عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بمكة (ت ١٥٠).
* سفيان بن سعيد الثوري بالكوفة (ت ١٦١).
* حماد بن سلمة بالبصرة (ت ١٦٧).
* سفيان بن عيينة بمكة (ت ١٩٧).
* الوليد بن مسلم بالشام (ت ١٩٤).
* جرير بن عبد الحميد بالري (ت ١٨٨).
* عبد الله بن المبارك بمرو وخاراسان (ت ١٨١).
* هشيم بن بشير بواسط (ت ١٨٣).
* زكريا بن أبي زائدة بالكوفة (ت ١٤٩).
* وكيع بن الجراح (ت ١٩٧).
* عبد الرزاق بن همام باليمن (ت٢١١).

وكان أغلب هذه المصنفات متخصصة في موضوع واحد كالتفسير أو الأدب أو الأحكام أو المغازي، وكانت كتب آثار تجمع أقوال النبي ﷺ وأقوال الصحابة والتابعين، وكان يغلب عليها طابع الجمع دون التمييز بين الصحيح ومن هو أقل صحة –افتقدت لمنهجية في الاختيار والبحث–.

ثم ظهرت الجوامع والمسانيد والمعاجم:

- **الجوامع المبوبة:**

كتب جمعت أصنافًا من العلم والأحكام والسير والأدب وغيرها على تفاوت فيما بينها في استيعاب هذه الأصناف، وهي مرتبة على أبواب حسب الموضوعات التي رتبت فيها على أبواب.

أشهر هذه الجوامع:

* الجامع الصحيح المسند المختصر من أحاديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري.
* الجامع الصحيح، للإمام مسلم بن حجاج.
* الجامع، للإمام محمد بن عيسى الترمذي.
* السنن، للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني (أبي داوود).
* السنن، للإمام أحمد بن شعيب النسائي.
* السنن، للإمام محمد بن ماجه القزويني.

- **المسانيد:**

وهي كتب مرتبة على الصحابة بحيث تذكر روايات الصحابي الواحد كلها في مكان واحد ثم ينتقل لصحابي آخر وهكذا دون ترتيب على حسب مواضيع.

أشهر المسانيد:

* مسند الإمام أحمد بن حنبل: حيث بدأ بالخلفاء الأربعة الراشدين، وذكر أحاديث كل واحد، ثم أكمل بقية العشرة المبشرين إلى أن ذكر طائفة كبيرة من الصحابة بلغت تسعمائة وأربعة.
* مسند البزار: جمع روايات الصحابي الواحد، ولكن بوّب أحاديث كل صحابي.

- **المعاجم:**

هي كتب يروي فيها المصنف أحاديث شيوخه، ويرتب أسماء الشيوخ على حروف المعجم.

أشهر المعاجم:

* معجم الطبراني الصغير.

المبحث الرابع

بداية تدوين الأحاديث

هناك فكرة خاطئة عند البعض ويروج لها الكثير من أعداء الدين، وهي تأخر تدوين الأحاديث عن رسول الله ﷺ، وأنها لم تدون إلا متأخرًا وهذا كلام خاطئ تمامًا، فتدوين الأحاديث بدأ منذ أيام الرسول ﷺ، ولكن جمعها هو ما تأخر؛ لأن كما ذكرنا الاهتمام كان منصبًا على جمع القرآن الكريم أولًا، واستقرار الأمة على جمعه، فلما منَّ الله عز وجل على هذه الأمة بأن اجتمعت على مصحف واحد يجمع كلام الله دون اختلاف على كلام رب العالمين، أو أن يكون مع كل بلد أو جماعة مصحف يختلف رسمه عن البلاد الأخرى، بعد ذلك بدأ الاهتمام ينصب على جمع أحاديث رسول الله ﷺ.

الأدلة على تدوين الأحاديث زمن النبي ﷺ

١- أشهر وأقدم صحيفة دونت فيها أحاديث رسول الله ﷺ هي صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص التي سماها الصادقة، روى الإمام أحمد وأبو داوود عنه رضي الله عنه أنه قال: «كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ وأريد حفظه، فنهتني قريش عن ذلك، قالوا: تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يتكلم في الرضا والغضب، قال: فأمسكت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأشار بيده إلى فيه، فقال: اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق».

وهذا ما ذكره أبو هريرة في حديث أخرجه البخاري (رقم ١١٣): «ليس أحد من

أصحاب رسول الله ﷺ، أكثر حديثا عن النبي ﷺ مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب».

كان عبد الله رضي الله عنه يحرص عليها جدًا وقام بحفظها وصونها من أن ينالها شيء من الخلل والتغيير أو شيء من التلف، وكان يعتز بها جدًا ويقول: «ما يرغبني في الحياة إلا خصلتان: الصادقة والوَهْطَة، فأما الصادقة فصحيفة كتبتها عن رسول الله ﷺ» (ذكره الخطيب البغدادي في تقييد العلم)، وقد خصص لهذه الصحيفة صندوقًا محكمًا يحتفظ به عنده، وإذا أراد أن يحدث أحيانًا أو يتأكد من شيء فإنه يرجع إليها ويروي منها، يقول أبو قبيل المعافري: «كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنه– وسُئِل: أي المدينتين تفتح أولًا: القسطنطينية أو رُومِيَّة؟ قال: فدعا عبد الله بن عمرو بصندوق له حَلَق، قال: فأخرج منه كتابًا فجعل يقرؤه، قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ أي المدينتين تفتح أولًا: قسطنطينية أو رومية؟ فقال النبي ﷺ: بل مدينة هرقل أولًا تفتح».

وأحاديث عبد الله بن عمرو ليست قليلة فبلغ مجموع ما أسند رضي الله عنه سبع مئة حديث، اتفق الشَّيخان على سبعة أحاديث منها، وانفرد البخاري بثمانية، ومسلم بعشرين، وبلغ عدد أحاديثه في "المسند" سبعة وعشرين وست مئة (يعني بالمكرر). [مسند عبد الله بن عمرو (الحديث ٦٢٨٦ – ٦٣٣٩) في مسند الإمام أحمد].

هذا وذكر محمد سيف الدين عليش في كتابه (عبد الله بن عمرو بن العاص وصحيفته الصادقة ص ١٤٢) إحصاءً لأحاديث الصادقة عند الإمام أحمد وعند أصحاب السنن الأربعة وهي كالتالي:

* عند الإمام أحمد: ٢٠٢ حديثًا من إجمالي ما رواه عن عبد الله بن عمرو ٦٣٢ حديثًا.

* في سنن أبي داوود ٨١ حديثًا من إجمالي ١٥٤ حديثًا لعبد الله بن عمرو.

* عند النسائي ٥٣ حديثًا من إجمالي ١٢٨ حديثًا لعبد الله بن عمرو بن العاص.
* عند الترمذي ٣٥ حديثًا من إجمالي ٨٩ حديثًا رواها لعبد الله بن عمرو.
* عند ابن ماجه ٦٥ حديثًا من إجمالي ١١٧ حديثًا رواها لعبد الله بن عمرو.

٢- حديث اكتبوا لأبي شاه في صحيح البخاريِ في حديث رقم (٦٨٨٠): أنَّه لَمَّا خطَب رسولُ اللهِ ﷺ بعدَ فتْحِ مَكَّةَ، قامَ رجلٌ مِن أهلِ اليَمنِ فقال: اكتُبْ لي يا رسولَ اللهِ، فقال ﷺ: «اكتُبوا لأبي شاهٍ»، وهذا أمرٌ صريحٌ بالكتابةِ.

أدلة تدوين السنة زمن الصحابة رضوان الله عليهم

١- في صحيح البخاري (١٤٥٤) تجد أن أبا بكر رضي الله عنه كتب كتابًا لأنس يشرح فيه مقادير الزكاة، وإليكم الحديث وكيف فصل فيه مقادير الزكاة: أخرج البخاري أن أبَا بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عنه كَتَبَ لأنس بن مالك هذا الكِتَابَ لَمَّا وجَّهَهُ إلى البَحْرَيْنِ: «بسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ، هذِه فَرِيضَةُ الصَّدَقَةِ الَّتي فَرَضَ رَسولُ اللهِ ﷺ علَى المُسْلِمِينَ، والَّتي أمَرَ اللهُ بهَا رَسولَهُ، فمَن سُئِلَها مِنَ المُسْلِمِينَ علَى وجْهِها فَلْيُعْطِهَا، ومَن سُئِلَ فَوْقَهَا فلا يُعْطِ في أرْبَعٍ وعِشْرِينَ مِنَ الإبِلِ فَما دُونَهَا مِنَ الغَنَمِ، مِن كُلِّ خَمْسٍ شَاةٌ، إذَا بَلَغَتْ خَمْسًا وعِشْرِينَ إلى خَمْسٍ وثَلَاثِينَ، فَفِيهَا بنْتُ مَخَاضٍ أُنْثَى، فَإذَا بَلَغَتْ سِتًّا وثَلَاثِينَ إلى خَمْسٍ وأَرْبَعِينَ، فَفِيهَا بنْتُ لَبُونٍ أُنْثَى، فَإذَا بَلَغَتْ سِتًّا وأَرْبَعِينَ إلى سِتِّينَ فَفِيهَا حِقَّةٌ طَرُوقَةُ الجَمَلِ، فَإذَا بَلَغَتْ واحِدَةً وسِتِّينَ إلى خَمْسٍ وسَبْعِينَ، فَفِيهَا جَذَعَةٌ، فَإذَا بَلَغَتْ يَعْنِي سِتًّا وسَبْعِينَ إلى تِسْعِينَ، فَفِيهَا بنْتَا لَبُونٍ، فَإذَا بَلَغَتْ إحْدَى وتِسْعِينَ إلى عِشْرِينَ ومِئَةٍ، فَفِيهَا حِقَّتَانِ طَرُوقَتَا الجَمَلِ، فَإذَا زَادَتْ علَى عِشْرِينَ ومِئَةٍ، فَفِي كُلِّ أرْبَعِينَ بنْتُ لَبُونٍ، وفي كُلِّ خَمْسِينَ حِقَّةٌ، ومَن لَمْ يَكُنْ معهُ إلَّا أرْبَعٌ مِنَ الإبِلِ، فليسَ فِيهَا صَدَقَةٌ إلَّا أنْ يَشَاءَ رَبُّهَا، فَإذَا بَلَغَتْ خَمْسًا مِنَ الإبِلِ، فَفِيهَا شَاةٌ، وفي صَدَقَةِ الغَنَمِ في سَائِمَتِهَا إذَا كَانَتْ أرْبَعِينَ

إلى عِشْرِينَ ومِئَةٍ شَاةٌ، فَإِذَا زَادَتْ علَى عِشْرِينَ ومِئَةٍ إلى مِئَتَيْنِ شَاتَانِ، فَإِذَا زَادَتْ علَى مِئَتَيْنِ إلى ثَلَاثِ مِئَةٍ، فَفِيهَا ثَلَاثُ شِيَاهٍ، فَإِذَا زَادَتْ علَى ثَلَاثِ مِئَةٍ، فَفِي كُلِّ مِئَةٍ شَاةٌ، فَإِذَا كَانَتْ سَائِمَةُ الرَّجُلِ نَاقِصَةً مِن أرْبَعِينَ شَاةً واحِدَةً، فليسَ فِيهَا صَدَقَةٌ إلَّا أنْ يَشَاءَ رَبُّهَا، وفي الرِّقَةِ رُبْعُ العُشْرِ، فإنْ لَمْ تَكُنْ إلَّا تِسْعِينَ ومِئَةً، فليسَ فِيهَا شيءٌ إلَّا أنْ يَشَاءَ رَبُّهَا».

٢- أخرج الإمام مسلم في صحيحه حديثًا عن كتاب بين جابر بن سمرة وعامر بن سعد بن أبي وقاص والحديث رقم (١٨٢٢) حدثنا قتيبة بن سعيد وأبو بكر بن أبي شيبة، قالا: حدثنا حاتم (وهو ابن إسماعيل) عن المهاجر بن مسمار، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، قال: كتبت إلى جابر بن سمرة، مع غلامي نافع: أن أخبرني بشيء سمعته من رسول الله ﷺ، قال: فكتب لي: سمعت رسول الله ﷺ يوم جمعة، عشية رجم الأسلمي، يقول: «لا يزال الدين قائمًا حتى تقوم الساعة، أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش»، وسمعته يقول: «عصيبة من المسلمين يفتتحون البيت الأبيض، بيت كسرى، أو آل كسرى»، وسمعته يقول: «إن بين يدي الساعة كذابين فاحذروهم»، وسمعته يقول: «إذا أعطى الله أحدكم خيرًا فليبدأ بنفسه وأهل بيته»، وسمعته يقول: «أنا الفرط على الحوض».

وهكذا نعلم أن المكاتبة كانت موجودة بين الصحابة بأحاديث رسول الله ﷺ، وهذا يبين أن كتابة الأحاديث لم تتأخر كما يدّعي البعض، ولكن الجمع توسع والتصنيف على الأبواب الفقهية أو على حسب منهج يختاره المصنف هو ما جاء بعد ذلك في عصر التابعين ومن بعدهم، وذلك لاتساع الرقعة الإسلامية والحاجة لنقل علم رسول الله ﷺ والنظر فيه وتنقيحه.

المبحث الخامس

حملة العلم عن رسول الله ﷺ

يبرز سؤال مهم لدى الكثير، كيف حُمل العلم من الصحابة لمن بعدهم؟

من المهم معرفة كيف نقل العلم عن رسول الله ﷺ، حتى نتأكد أنه لم يمر بفراغٍ زمني بين الصحابة وأصحاب المصنفات، بالرغم من أن هذا افتراض يستحيل عقلًا، فكيف تقبل الأمة هذه المصنفات وهي ترى فراغًا وانقطاعًا بين الرواة وبين الرسول ﷺ؟!

والآن لنستعرض قليلًا كيف تم النقل..

لازم الصحابة مجموعة من التابعين يأخذون عنهم العلم عملًا بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠]، فهم أرادوا السير على نهجهم؛ لأنهم رضي الله عنهم ورضي عمن اتبعهم، رجاء للجزاء الذي أعده لهم الله عز وجل، وكلما زادت ملازمة التلميذ للصحابي أو للتابعي زادت قوة معرفته عنه وعن علمه، ويشتهر بالتحديث عنه وضبطه لأحاديثه وعلمه بسبب كثرة هذه الملازمة، وهناك مصنفات أفردت لتبين لنا طبقات الرواة وحملة العلم منها: الأمصار ذوات الآثار للذهبي، ومشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار لابن حبان، وتسمية فقهاء الأمصار للنسائي، وإعلام الموقعين لابن القيم الجوزية.

وأنقل بإيجاز لمحة بسيطة عن بعض هؤلاء مما ورد في كتاب إعلام الموقعين لابن القيم الجوزية، يقول ابن القيم: «والذين حفظت عنهم الفتوى من الصحابة مئة ونيف وثلاثون نفسًا ما بين رجل وامرأة، وكان المكثرون منهم سبعة: عمر بن

الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر».

وقال أبو محمد بن حزم (في الإحكام): «ويمكن أن يجمع من فتوى كل واحد منهم سفر ضخم». قال: «وقد جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب بن أمير المؤمنين المأمون فتيا بن عباس رضي الله عنهما في عشرين كتابا»، قال أبو محمد: «والمتوسطون منهم فيما روي عنهم من الفتيا: أبو بكر الصديق، وأم سلمة، وأنس بن مالك، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وعثمان بن عفان، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وأبو موسى الأشعري، وسعد بن أبي وقاص، وسلمان الفارسي، وجابر بن عبد الله، ومعاذ بن جبل، فهؤلاء ثلاثة عشر يمكن أن يجمع من فتيا كل امرئ منهم جزئ صغير جدًا، ويضاف لهم: طلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وعمران بن حصين، وأبو بكرة، وعبادة بن الصامت، ومعاوية بن أبي سفيان».

وقال أيضًا ابن القيم في نفس الكتاب: «والعلم والدين والفقه انتشر في الأمة عن أصحاب ابن مسعود، وأصحاب زيد بن ثابت، وأصحاب عبد الله بن عباس، وأصحاب عبد الله بن عمر، فعلم الناس عامته عن أصحاب هؤلاء الأربعة، فأما أهل المدينة فعلمهم عن أصحاب زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر، وأما أهل مكة فعلمهم عن أصحاب ابن عباس، وأما أهل العراق فعلمهم عن أصحاب بن مسعود».

وأما عائشة فكانت مقدمة في العلم بالفرائض والأحكام والحلال والحرام، وكان من الآخذين عنها الذين لا يكادون يتجاوزون قولها: ابن أخيها القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وابن أختها عروة بن الزبير، وهو الذي قال –كما ذكر في تهذيب التهذيب–: «لقد رأيتني قبل موت عائشة بأربعة أو خمس حجج وأنا أقول لو ماتت اليوم ما ندمت على حديث عندها إلا قد وعيته».

ثم قال ابن القيم: «ثم صارت الفتوى في أصحاب هؤلاء كسعيد بن المسيب راوية عمر وحامل علمه (وسعيد بن المسيب زوج ابنة أبي هريرة)، قال جعفر بن ربيعة: قلت لعراك بن مالك: من أفقه أهل المدينة؟ قال: أما أفقههم فقهًا وأعلمهم بقضايا رسول الله ﷺ وقضايا أبي بكر وعمر وقضايا عثمان وأعلمهم بما مضى عليه الناس فسعيد بن المسيب، وأما أغزرهم حديثًا فعروة بن الزبير، ولا تشاء أن تفجر من عبيد الله بحرًا إلا فجرته».

وقال الزهري: «كنت أطلب العلم من ثلاثة: سعيد بن المسيب وكان أفقه الناس، وعروة بن الزبير وكان بحرًا لا تكدره الدلاء، وكنت لا تشاء أن تجد عند عبيد الله طريقة من علم لا تجدها عند غيره إلا وجدت». [رواه يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ].

وقال أيضًا ابن القيم: «وكان المفتون بالمدينة من التابعين: ابن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وخارجة بن زيد بن ثابت، وأبا بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هشام، وسليمان بن يسار، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وهؤلاء هم الفقهاء السبعة».

وجمعهم الناظم في قوله:

إذا قيل: من في العلم سبعة أبحر روايتهم ليست عن العلم خارجة
فقل: هم عبيد الله عروة قاسم سعيد أبو بكر سليمان خارجة

ثم أشهر من أخذ العلم عن هؤلاء التابعين الكبار **في المدينة:** محمد بن شهاب الزهري، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وربيعة بن عبد الرحمن (ربيعة الرأي)، وهؤلاء أخذ عنهم الإمام الجليل مالك بن أنس صاحب الموطأ (ولد ٩٣ هجريًا وتوفي ١٧٣ هجريًا).

وفي مكة المكرمة: من أشهر من حمل العلم فيها زمن الصحابة: عبد الله بن عباس، أخرج البخاري في صحيحه حديثًا رقم (٣٧٥٦) عن ابن عباس أنه قال:

«ضَمَّنِي النبيُّ ﷺ إلى صَدْرِهِ، وقالَ: اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الحِكْمَةَ»، وأخرجه مسلم بلفظ: «اللهم فقهه» حديث رقم (٢٤٧٧)، وروى البخاري في التاريخ الكبير (٤/٥) وابن سعد في الطبقات (٣١٦/٢): قيل لطاووس: أدركت أصحاب محمد ﷺ ثم انقطعت لابن عباس فقال: أدركت سبعين من أصحاب محمد ﷺ إذا تدارؤوا في شيء انتهوا إلى قول ابن عباس.

وفي زمن التابعين يقول ابن القيم في إعلام الموقعين: «وكان المفتون بمكة: عطاء بن أبي رباح، وطاووس بن كيسان، ومجاهد بن جبر، وعبيد بن عمير، وعمرو بن دينار، وعبد الله بن مليكة، وعبد الرحمن بن سابط، وعكرمة، ثم بعدهم: عبد الله بن طاووس، وعبد الله بن خالد بن أسيد، وأبو الزبير المكي، ثم بعدهم: عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، وسفيان بن عيينة، وكان أكثر فتواه في المناسك وكان يتوقف في الطلاق، وبعدهم: مسلم بن خالد الزنجي، وسعيد بن سالم القداح، وبعدهما: الإمام محمد بن إدريس الشافعي».

وفي البصرة: كان نزلها الصحابي الجليل أنس بن مالك، يقول ابن القيم: «وكان من المفتين بالبصرة: عمرو بن سلمة الجرمي، وأبو مريم الحنفي، وكعب بن سور، والحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وأبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي، ومسلم بن يسار، ومطرف بن عبد الله بن الشخير، وزرارة بن أبي أوفى، وأبو بردة بن أبي موسى، والحسن البصري أدرك خمسمائة من الصحابة وقد جمع بعض العلماء فتاويه في سبعة أسفار ضخمة (قال ذلك ابن حزم في الإحكام، والذي جمع فتاوي الحسن البصري هو القاضي محمد بن أحمد بن مفرج القرطبي ألف كتاب "فقه الحسن البصري" في سبعة مجلدات، كما أنّه ألف كتابا في فقه الزهري من عدة أجزاء أيضًا).

ثم بعدهم: أيوب السختياني، وسليمان التيمي، وعبد الله بن عون، ويونس بن عبيد، والقاسم بن ربيعة، وخالد بن أبي عمران، وأشعث بن عبد الملك الحمراني، وقتادة، وحفص بن سليمان وإياس بن معاوية القاضي.

وبعدهم: سوار القاضي، وأبو بكر العتكي، وعثمان بن سليمان البتي، وطلحة بن إياس القاضي، وعبيد الله بن الحسن العنبري، وأشعث بن جابر بن زيد.

ثم بعد هؤلاء: عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، وسعيد بن أبي عروبة، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وعبد الله بن داود الخريبي، وإسماعيل بن علية، وبشر بن المفضل، ومعاذ بن معاذ العنبري، ومعمر بن راشد، والضحاك بن مخلد، ومحمد بن عبد الله الأنصاري.

وأما عن الكوفة: أشهر من نزلها من الصحابة: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، يقول ابن القيم: «وكان من المفتين بالكوفة: علقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد النخعي وهو عم علقمة، وعمرو بن شرحبيل الهمداني، وعبيدة السلماني، وشريح بن الحارث القاضي، ومسرق بن الأجدع الهمداني، وعبيدة السلماني، وشريح بن الحارث القاضي، وسليمان بن ربيعة الباهلي، وزيد بن صوحان، وسويد بن غفلة، والحارث بن قيس الجعفي، وعبد الرحمن بن يزيد النخعي، وعبد الله بن عتبة بن مسعود القاضي، وخيثمة بن عبد الرحمن، وسلمة بن صهيب، ومالك بن عامر، وعبد الله بن سخبرة، وزر بن حبيش، وخلاس بن عمرو، وعمرو بن ميمون الأودي، وهمام بن الحارث، والحارث بن سويد، ويزيد بن معاوية النخعي، والربيع بن خثيم، وعتبة بن فرقد، وصلة بن زفر، وشريك بن حنبل، وأبو وائل شقيق بن سلمة، وعبيد بن نضلة، وهؤلاء أصحاب علي وابن مسعود رضي الله عنهما».

وأكابر التابعين كانوا يفتون في الدين ويستفتيهم الناس، وأكابر الصحابة حاضرون يجوزون لهم ذلك، وأكثرهم أخذ عن عمر وعائشة وعلي، ولقي عمرو

بن ميمون الأودي معاذ بن جبل وصحبه، وأخذ عنه وأوصاه معاذ عند موته أن يلحق بابن مسعود فيصحبه ويطلب العلم عنده ففعل ذلك.

ويضاف إلى هؤلاء أبو عبيدة وعبد الرحمن ابنا عبد الله بن مسعود وعبد الرحمن بن أبي ليلى (وأخذ عن مئة وعشرين من الصحابة).

ثم بعدهم: إبراهيم النخعي، وعامر الشعبي، وسعيد بن جبير، والقاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، وأبو بكر بن أبي موسى، ومحارب بن دثار، والحكم بن عتيبة، وجبلة بن سحيم، وصحب بن عمر.

ثم بعدهم: حماد بن أبي سليمان، ومنصور بن المعتمر، وسليمان بن الأعمش، ومسعر بن كدام.

ثم بعدهم: محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الله بن شبرمة، وسعيد بن أشوع، وشريك القاضي، والقاسم بن معن، وسفيان الثوري، وأبو حنيفة، والحسن بن صالح بن حي.

ثم بعدهم: حفص بن غياث، ووكيع بن الجراح، وأصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف القاضي، وزفر بن الهذيل، وحماد بن أبي حنيفة، والحسن بن زياد اللؤلؤي القاضي، وأسد بن عمرو، ونوح بن دراج القاضي، وأصحاب سفيان الثوري: كالأشجعي والمعافى بن عمران، وصاحبي الحسن بن حي: حمد الرؤاسي، ويحيي بن آدم.

وأكتفي بهذه اللمحة البسيطة والنبذة المختصرة التي توضح لنا آلية انتقال علم الرسول ﷺ بسلاسة حتى وصل لأصحاب المصنفات الذين اعتنوا بتدوين هذا العلم، وانتشرت بعدها مصنفاتهم وتناولتها الأمة وأهل العلم بالقبول حتى وصلتنا إلى يومنا هذا.

فجزاهم الله جميعًا عنا خير الجزاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

(التوبة - 100)

تفسير البغوي :

قال ابن إسحاق : فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله ، وكان رجلا محببا سهلا وكان أنسب قريش وأعلمها بما كان فيها ، وكان تاجرا ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لخير واحد من الأمر ، لعلمه وحسن مجالسته ، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ، فأسلم على يديه - فيما بلغني - : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، فجاء بهم إلى رسول ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا ، فكان هؤلاء الثمانية النفر الذين سبقوا إلى الإسلام . ثم تتابع الناس في الدخول في الإسلام ، أما السابقون من الأنصار : فهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، وكانوا ستة في العقبة الأولى ، وسبعين في الثانية ، والذين آمنوا حين قدم عليهم مصعب بن عمير يعلمهم القرآن ، فأسلم معه خلق كثير وجماعة من النساء والصبيان .

قوله عز وجل : (والسابقون الأولون من المهاجرين) الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم وفارقوا أوطانهم . (والأنصار) أي : ومن الأنصار ، وهم الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه من أهل المدينة وآووا أصحابه ، (والذين اتبعوهم بإحسان) قيل : هم بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأولين .

وقيل : هم الذين سلكوا سبيلهم في الإيمان والهجرة أو النصرة إلى يوم القيامة .

وقال عطاء : هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار بالترحم والدعاء .

وقال أبو صخر حميد بن زياد : أتيت محمد بن كعب القرظي فقلت له : ما قولك في أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فقال : جميع أصحاب رسول الله ﷺ في الجنة محسنهم ومسيئهم ، فقلت من أين تقول هذا؟ فقال : يا هذا اقرأ قول الله تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) إلى أن قال : (رضي الله عنهم ورضوا عنه) وقال : (والذين اتبعوهم بإحسان) شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أفعالهم الحسنة دون السيئة .

قال أبو صخر : فكأني لم أقرأ هذه الآية قط .

روينا أن النبي ﷺ قال : " لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه " .

ثم جمعهم الله عز وجل في الثواب فقال : (رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار) قرأ ابن كثير : (من تحتها الأنهار) ، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة ، (خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) .

المبحث السادس

نقد المرويات في عصر التدوين

مع مرور الزمن واتساع الرقعة الإسلامية ظهرت الحاجة لتدوين هدي النبي ﷺ وتعاليمه التي تناقلها الصحابة فبدأت المصنفات في الظهور، وأخذ كل كاتب لمصنف منهجًا التزم به في كتابه حتى يسهل على الناس الاستفادة منه، فمثلًا منهم من صنّف على المسانيد، فيورد الصحابي ويذكر كل أحاديثه التي تحقق من صحتها، ومنهم من صنّف على الأبواب الفقهية، ومنهم من صنّف ليجمع الأحاديث الصحاح، ومنهم من صنّف للضعفاء حتى يبين الأحاديث التي اشتهرت ولا تصح أو بها عيب وهكذا.

والتزم كل مصنف على نفسه بالتحقق من صحة ما يورده، وبذكر الأسباب أو شروط الصحة التي يراها تحققت وتبين بها صحة ما ينسب من المرويات، وقبل أن نذكر أمثلة لهذه المصنفات والاشتراطات التي وضعها المصنفون لابد من التنبيه على أمرين:

الأول: أن الأحاديث والمرويات كانت موجودة ومنتشرة بالفعل، هم فقط تتبعوها ورتبوها في كتبهم (أي هي ليست من أقوالهم الشخصية).

الثاني: أن الأحاديث لم تكن مشافهة فقط بل منها ما كان مدونًا ومكتوبًا، ودعنا نذكر أمثلة على هذه الكتابات كما أوردتها بعض كتب الحديث:

١- صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص (والتي سماها الصادقة)، والتي توارثتها عائلته (واشتهرت بسندها عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده)، وجده هذا محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص الأصغر، ومن المحدثين من قال أن جده يقصد به عبدالله بن عمرو بن العاص نفسه؛ لأن شعيبًا عاصره، وسبق الحديث عن هذه الصحيفة التي أسماها الصادقة في المبحث الرابع.

٢- صحيفة همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه، (والتي سماها البعض الصحيفة الصحيحة)، لهذه الصحيفة مكانة خاصة في تدوين الحديث؛ لأنها وصلت إلينا كاملة سالمة كما رواها ودوَّنها همام عن أبي هريرة، فكانت جديرة باسم "الصحيفة الصحيحة"، وعثر على هذه الصحيفة الباحث المُحَقِّق الدكتور محمد حميد الله في مخطوطتين متماثلتين في دمشق وبرلين، وزادنا ثقة بما جاء فيها أنها برُمَّتِها ماثلة في مسند أحمد (٢/٣١٢-٣١٩)، وكَثِير من أحاديثها مروي في صحيح البخاري في أبواب مختلفة، (صحيح البخاري: ط. مصر سنة ١٣١٣ جـ١ ص٣٤، ٣٩، ٥٦، ٦٤، ٩١، جـ٤ ص٥٦، ٦٣، ٨٦ ومواضيع أخرى أيضًا)، وتعداد هذه الصحيفة ١٣٨ حديثًا.

٣- الحسن البصري كان يروي عن الصحابي سمرة بن جندب عن كتاب كما ذكر الترمذي (ج١ ص٢٤٤) عن علي بن المديني قال: سماع الحسن عن سمرة صحيح، وقد تكلم البعض في رواية الحسن عن سمرة، وقالوا إنما يتكلم عن صحيفة سمرة، وذكر الخطابي في معالم السنن (ج١ ص٢١٧) أن النسائي قال: الحسن عن سمرة كتاب، ولم يسمع الحسن عن سمرة إلا حديث العقيقة.

٤- صحيفة لسعد بن عبادة، أخرج الترمذي (ج١ ص٢٥١) في سننه، عن ابن سعد بن عبادة قوله: وجدنا في كتاب سعد أن النبي ﷺ قضى باليمين والشاهد.

٥- صحيفة علي بن أبي طالب، في البخاري حديث (رقم ١١١)، عن أبو جحيفةَ قُلتُ لِعَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ: «هلْ عِنْدَكُمْ كِتَابٌ؟ قَالَ: لَا، إِلَّا كِتَابُ اللَّهِ، أَوْ فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ، أَوْ ما في هذِهِ الصَّحِيفَةِ، قَالَ: قُلتُ: فَما في هذِهِ الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: العَقْلُ، وفَكَاكُ الأَسِيرِ، ولَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بكَافِرٍ».

وهذه فقط أمثلة لبعض الصحف التي كانت موجودة قبل ظهور المصنفات الكبار الشهيرة، وتعرضت للنقد من نقاد الحديث، وأحببت أن أذكرها للتأكيد على شيء منطقي، وهو أن الكتابة للحديث لم تكن أمرًا مستحدثًا في القرن الثاني الهجري

كما يروج البعض، وإنما لدينا أدلة تثبت العديد من الكتابات الصحيحة التي دونت أيام الرسول ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم.

مناهج نقد الروايات عند المحدثين

ذكر الإمام مسلم في صحيحه باب (أن الإسناد من الدين): «حَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ زَكَرِيَّاءَ، عَنْ عَاصِمٍ الْأَحْوَلِ، عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، قَالَ: لَمْ يَكُونُوا يَسْأَلُونَ عَنِ الْإِسْنَادِ، فَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ، قَالُوا: سَمُّوا لَنَا رِجَالَكُمْ، فَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ فَيُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ، وَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ الْبِدَعِ فَلَا يُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ»، وهذا ما يتفق مع قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات: ٦]؛ لهذا كان النظر في الرجال ناقلي الخبر هو أول خطوة يعرف بها صحة الخبر، ليعرف هل هم أهل للثقة وقبول الخبر منهم أم لا؟

وهنا لنا وقفة.. فقد يقول البعض: وكيف يعرف أهل الثقة؟

الثقة في ناقل الخبر تشمل صفتين رئيستين هما: (العدالة الدينية – وضبط الخبر فيخبر به كما سمعه أو يؤديه كما تحمله).

أما عن **العدالة الدينية**: فهي ما ارتضاه الله عز وجل في الشهود فقال: {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ}، وطالما أن الله عز وجل اشترط صفة العدالة إذن فهي قابلة للتحقق منها؛ لأنه لن يطلب منا شيئًا مستحيلًا، واسمع لوصف جميل وصفه الله عز وجل تبين كيف أن الإنسان يظهر عليه علامات الإيمان فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ [الأعراف: ٢٦]، فشبه لنا عز وجل التقوى باللباس الذي يلبسه المرء ليواري به

جسده، وهذا التشبيه ذكره مرة أخرى في سورة البقرة فقال تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾ [البقرة: ١٣٨]، فشبه الله عز وجل الدين والعبادات بالصبغة التي يصبغ بها الملابس فيتبين بها ألوانها، وكل هذه التشبيهات لتبين لنا أن ما بداخل المرء ينعكس على خارجه، فمن كان بداخله إيمان صادق وتقوى لله ينعكس على ظاهره وظاهر أقواله وأفعاله، وهذا ما أكّده الله عز وجل في أهم ما يعرف به المنافقون في سورة محمد فقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ٢٩ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠﴾ [محمد: ٢٩-٣٠]؛ لذا فالقول بأن المنافقين لا نستطيع تمييزهم هذا تكذيب لكلام الله عز وجل الذي أخبر أننا نستطيع تمييزهم من (لحن القول)، وهو ما أكّده الله عز وجل في سورة آل عمران: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ ...﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ولو أخذنا مثالًا معاصرًا، من يحلل الزنا بمسميات كالمساكنة وما شابه، هل هذا يدعو لفضيلة؟ أم يدعو لرذيلة تأباها الفطرة السليمة؟ بالطبع يدعو لرذيلة وفاحشة والله عز وجل دينه لا يدعو أبدًا لرذائل وخبائث كهذه الدعاوى المنكرة فقال تعالى: ﴿... قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [الأعراف: ٢٨]؛ ولهذا القائل بمثل هذه الدعاوى لا يؤتمن على كلام في الدين أو شرع الله أبدًا، وهذا ما قاله عز وجل: {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}، بل هو ممن وصفه الله عز وجل بالاتباع لخطوات الشيطان، وجعله سببًا لعدم تزكية أمثال من يأمرون بالفواحش، فقال تعالى في سورة النور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾ [النور: ٢١].

ونسأل الله العافية.

وأما عن الضبط: فلم يكتفِ نقاد الحديث بأن يكون ناقل الخبر عدلًا، يمنعه دينه من الكذب على رسول الله ﷺ، بل اشترطوا شيئًا مهمًا آخر، وهو أن يكون ضابطًا لما سمعه فيرويه كما سمعه، أخرج مسلم في مقدمة صحيحه عن أبي الزناد عبد الله بن ذكوان أنه قال: «أدركت بالمدينة مئة كلهم مأمون لا يؤخذ عنهم الحديث، يقال: ليس من أهله»، وكذلك أخرج في مقدمة صحيحه عن عمرو بن محمد الناقد: «سأل رجل وكيعًا (بن الجراح) قال: يا أبا سفيان تعرف حديث سعيد بن عبيد الطائي عن الشعبي في رجل حج عن غيره، ثم حج عن نفسه؟ فقال: من يرويه؟ قلت: وهب بن إسماعيل، قال: ذلك رجل صالح، وللحديث رجال».

وللرجال في ضبط أحاديثهم طريقان: إما يدونوها في كتب، وإما يحفظونها في صدورهم.

وبالمناسبة قديمًا كان بعض الأئمة يفضلون من يحفظ في صدره، وليس فقط يعتمد على كتابه، مخافة التصحيف والتحريف في الكتب دون أن يدري، وهذا ما رواه أشهب في رواية يقول: «سمعت مالكًا –وسئل عن الرجل الثقة فيدفع إليه بكتاب فيعرف الحديث، إلا أنه ليس له حفظ وإتقان؟– قال: لا يؤخذ عنه، إذا زيد في الحديث شيئًا لم يعرف». [أخرجه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل، والخطيب في الكفاية ص٣٣٧]، وهذا من قبيل تشجيع الرواة على متابعة ضبط مروياتهم باستمرار، ولا يكتفون بتدوينها في كتبهم دون متابعتها، وإلا فالكتاب المتقن الموثق حجة عند أهل العلم، والكتاب يقيد العلم، ويساعد في مراجعته، وذاكرة الإنسان قد تخونه.

وهنا نرجع للتأكيد على أن التدوين كان موجودًا، والرواة كان لهم كتبهم التي يدونون فيها الأحاديث، وليس كما يروج البعض أن التدوين بدأ بعد مئتي عام، وكأن الناس فجأة اكتشفت الكتابة! ولنستعرض بعض الأمثلة على الرواة الذين كانوا يدونون ويضبطون مروياتهم في كتاب:

١- أخرج ابن أبي حاتم في "التقدمة" (ص٢٧١)، وفي الجرح والتعديل (٢٢١/٢/٣) عن عبد الله بن المبارك: «إذا اختلف الناس في حديث شعبة، فكتاب غندر حكم بينهم».

٢- أخرج مسلم في "التمييز" حديث (رقم ٣٠) عن يزيد بن هارون وذكر أهل البصرة: «إذا اختلفوا في حديث نطقوا بكتاب عبد الوارث».

٣- أخرج ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" (٢٥٩/٢/١) قول أحمد بن حنبل في حاتم بن إسماعيل: «حاتم أحب إلي من الدراوردي، زعموا أن حاتمًا كان رجلًا فيه غفلة، إلا أن كتابه صالح»، ورقم (٢٤/١/٣) في أبي عبيدة الحداد: «لم يكن صاحب حفظ، وكان كتابه صحيحًا».

٤- أخرج الخطيب في "الجامع" حديث (رقم ١٠٢٤) عن الإمام أحمد: «ما كان أقل سقطًا من ابن المبارك، كان رجلًا يحدث من كتابه، ومن حدث من كتاب لا يكاد يكون له سقط كبير شيء».

كيف يُعرف ضبط الراوي؟

يعرف ضبط الراوي بطرق عدة منها:

١- اختبار الراوي مباشرة:

وذلك بتلقينه أخطاء في الأحاديث، فإن قبل التلقين يضعفون حفظه، ولو زاد ضعفه تُرك حديثه، أخرج بن حبان في "المجروحين" (٦٩/١) عن عمرو بن علي أنه قال: «سمعت يحيى بن سعيد يقول: كنا عند شيخ من أهل مكة أنا وحفص

بن غياث، فإذا أبو شيخ جارية بن هرم يكتب عنه، فجعل حفص يضع له الحديث ويقول: حدثتك عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين بكذا وكذا فيقول: حدثتني عائشة بنت طلحة عن عائشة بكذا وكذا، فيقول له حفص بن غياث: وحدثك القاسم بن محمد عن عائشة بكذا، فيقول: حدثني القاسم بن محمد عن عائشة بكذا، فيقول: حدثك سعيد بن جبير عن ابن عباس بمثله، فيقول: حدثني سعيد بن جبير عن ابن عباس بمثله، فلما فرغ ضرب حفص بيده إلى ألواح جارية فمحاها، فقال جارية: تحسدونني؟ فقال له حفص: لا، ولكن هذا يكذب. قال عمرو بن علي: فقلت ليحيى: من الرجل؟ فلم يسمه، فقلت له يومًا: يا أبا سعيد، لعل عندي عن هذا الشيخ ولا أعرفه، فقال هو: موسى بن دينار».

٢- عرض ما يحدث به الراوي حفظًا على ما في كتبه:

قال البخاري في باب رفع اليدين للصلاة: يروى عن سفيان عن عاصم بن كليب عن عبد الرحمن بن الأسود عن علقمة، قال: قال ابن مسعود: ألا أصلي بكم صلاة رسول الله ﷺ؟ فصلى، ولم يرفع يديه إلا مرة، وقال أحمد بن حنبل: عن يحيى بن آدم: نظرت في كتاب عبد الله بن إدريس عن عاصم بن كليب، ليس فيه: ثم لم يعد. قال البخاري: فهذا أصح لأن الكتاب أحفظ عند أهل العلم؛ لأن الرجل ربما حدث بشيء ثم يرجع إلى الكتاب فيكون كما في الكتاب.

٣- عرض رواياته لروايات غيره ليتبين قدر موافقته أو مخالفته أو تفرده (مقارنة أحاديث الراوي مع أحاديث الثقات الحافظين):

وهذا هو السبيل الأشهر لمعرفة الضبط للراوي، ومعرفة أخطاء المتون أيضًا، ويعتمد عليه كلما بعد الزمن عن زمن الصحابة، يقول الشافعي في "الرسالة" (فقرة ١٠٤٧): «يعتبر على أهل الحديث بأن إذا اشتركوا في الحديث عن الرجل بأن يستدل على حفظ أحدهم بموافقة أهل الحفظ، وعلى خلاف حفظه بخلاف حفظ أهل الحفظ له».

٤-مجيء قرينة في سياق الرواية تكشف سوء حفظ الراوي:

كقول البخاري مثلًا في (ذواد بن علبة الحارثي): يخالف في حديثه واستدل له بقوله: حدثنا ابن الأصبهاني، قال: حدثنا الأصبهاني، قال: حدثنا المحاربي عن ليث عن مجاهد قال لي أبو هريرة: يا فارسي أشكم درد (وهذه كلمات فارسية). [حديث أخرجه الإمام أحمد، وأخرجه العقيلي في الضعفاء (٤٨/٢)].

قال ابن الأصبهاني: ورفعه ذواد وليس له أصل، أبو هريرة لم يكن فارسيًا وإنما مجاهد فارسي، (أي أنه جعل الرسول يخاطب أبا هريرة، والأصح إن صح الحديث أن أبو هريرة يخاطب مجاهد)، وتبعه على ذلك العقيلي، وقال: الموقوف أولى وكذلك قال ابن الجوزي، ولمثل هذه الأخطاء ضعفوه.

وأنقل مثالًا من كتب الجرح والتعديل لنرى مجهود نقاد الحديث في توثيق الرواة:

مثال تطبيقي من ابن حبان لمعرفة معنى العدالة:

وعمدت إلى ابن حبان لأنه من أكثر علماء الجرح المتهمين بالتساهل في توثيق الرجال، والآن لنعرف هذا المتساهل كيف يوثق الرواة؟ (ذكر شرطه في صحيحه ابن بلبان في مقدمة كتابه الإحسان في تقريب صحيح بن حبان) يقول ابن حبان: «وأما شرطنا في نقلة ما أودعناه كتابنا هذا من السنن، فإنّا لم نحتج فيه إلّا بحديث اجتمع في كل شيخ من رواته خمسة أشياء: أولًا: العدالة في الدين بالستر الجميل، ثانيًا: الصدق في الحديث بالشهرة فيه، ثالثًا: العقل بما يحدث من الحديث، رابعًا: العلم بما يحيل من معاني ما يروي، خامسًا: المتعري خبره عن التدليس، فكل من اجتمع فيه هذه الخصال الخمس احتججنا بحديثه، وبنينا الكتاب على روايته، وكل من تعرى عن خصلة من هذه الخصال الخمس لم نحتج به».

أولًا: العدالة في الدين بالستر الجميل: يقول ابن حبان: «والعدالة في الإنسان؛ هو أن يكون أكثر أحواله طاعة الله، لأنّا متى ما لم نجعل العدل إلّا من لم

يوجد منه معصية بحال، أدّانا ذلك إلى أن ليس في الدنيا عدل، إذ النّاس لا تخلو أحوالهم من ورود خلل الشيطان فيها، بل العدل من كان ظاهر أحواله طاعة الله، والذي يخالف العدل من كان أكثر أحواله معصية الله، وقد يكون العدل الذي يشهد له جيرانه وعدول بلده به، وهو غير صادق فيما يروي من الحديث؛ لأنّ هذا شيء ليس يعرفه إلاّ من صناعته الحديث، وليس كل معدّل يعرف صناعة الحديث، حتى يعدّل العدل على الحقيقة في الرواية والدين معا ...»، أي أن ابن حبان فرّق لنا بين ما يعرف بالعدالة الدينية والعدالة الموجبة لقبول الرواية، والتي تجمع العدالة الدينية وضبطه للرواية، وهذا الضبط يعرفه من ينقد المرويات وليس لكل أحد، وهذا ما أكده بشرطه الثاني (الصدق في الحديث بالشهرة فيه).

لا أريد أن أطيل ولا أعتقد بقية شروطه تحتاج لشرح، ولكن سأختم لكم بنقل ترجمة لراوي عنده تبين لكم منهجه أكثر، وهو عبد الله بن المؤمل المخزومي ذكره في كتابه المجروحين (٢٨/٢) قال فيه: «شيخ من أهل مكة، يروي عن أبي الزبير، روى عنه ابن المبارك، كان قليل الحديث منكر الرواية، لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد، لأنه لم يتبين عندنا عدالته، فنقبل ما انفرد به، وذاك أنه قليل الحديث، لم يتهيأ اعتبار حديثه بحديث غيره لقلته، فيحكم له بالعدالة أو الجرح، ولا يتهيأ إطلاق العدالة على من ليس نعرفه بها يقينًا، فنقبل ما انفرد به، فعسى نحل الحرام أو نحرم الحلال برواية من ليس بعدل، أو نقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل اعتمادًا منا على رواية من ليس بعدل عندنا،كما لا يتهيأ إطلاق الجرح على من لم يستحقه فأحرى [بإحدى] الأسباب التي ذكرتها من أنواع الجرح في أول الكتاب، وعائذ بالله عز وجل عن هاتين الخصلتين أن نجرح العدل من غير علم، أو نعدل المجروح من غير يقين، ونسأل الله عز وجل الستر».

ويقول في ترجمة عائذ الله المجاشعي (المجروحين ٢/ ١٩٢ – ١٩٣) من أهل البصرة: «شيخ يروي عن أبي داود، أحسبه نفيع، روى عنه سلام بن مسكين، منكر الحديث على قلته، لا يجوز الاحتجاج به ولا تعديله إلا بعد السبر، ولو كان ممن لا يروي المناكير ووافق الاحتجاج في الأخبار لكان عدلًا مقبول الرواية، إذ الناس أحوالهم على الصلاح والعدالة حتى يتبين منهم ما يوجب القدح، فحينئذ يخرج بما ظهر منه من العدالة إلى الجرح، هذا حكم المشاهير من الرواة، فأما المجاهيل الذين لم يرو عنهم إلا الضعفاء فهم متروكون على الأحوال كلها».

وأقول: هذا والله كلام لا يحتاج لشرح أو تعليق، تقرؤه وتحس بعظمة هذا المجهود الذي كان يبذله هؤلاء العلماء، وكيف كانت دقتهم، ويبحثون ويجمعون الروايات فيحاكموها سويًا ليتأكدوا ما هي الرواية المضبوطة؟ ومن شذ عنها؟ وكيف كان دينهم فلا يطلقون أحكامًا دون أدلة يحتجون بها أمام الله عز وجل.

وهنا يبرز السؤال: هل اكتفى نقاد الحديث بتوثيق الراوي حتى يقبل حديثه؟

الجواب بالطبع لا، فتوثيق الراوي ليس إلا كخطوة أولى حتى ينظر لحديثه، وليس معنى تعديله أن تقبل كل الأحاديث التي يرويها، ولكن حتى يقبل الحديث هناك أمور وقرائن لابد من التأكد منها، منها: اتصال الإسناد، وهل فعلا تلقى الراوي الخبر من شيخه بطريقة مقبولة؟

كيف يمكن التحقق من اتصال الإسناد؟

هذا يتم بالنظر في الصيغ التي يؤدي بها الراوي الرواية، هذه الصيغ منها صيغ يُصرح فيها الراوي بالسماع مثل: (سمعت وحدثني وأنبأني وأخبرني) يقول الخطيب في "الكفاية" ص٤١٢: «مايسمع من لفظ المحدث له بالخيار فيه بين قوله: سمعت وحدثنا وأخبرنا وأنبأنا، إلا أن أرفع هذه العبارات (سمعت)»، وليس معنى أن الرواية بها تصريح بالسماع، والراوي ثقة أنها تحمل على سماعه، وإنما هناك شروط حتى تقبل صيغة السماع.

شروط لقبول صيغة السماع:

الأول: صحة الإسناد إلى الراوي المصرح بالسماع، أخرج ابن أبي حاتم في "المراسيل" ص ١٦٣: «قال أبو بكر الأثرم لأحمد بن حنبل: عراك بن مالك قال: سمعت عائشة؟ فأنكره وقال: عراك بن مالك من أين سمع عائشة؟ ماله ولعائشة؟ إنما يروي عن عروة، هذا خطأ، ثم قال من روى هذا؟ قلت: حماد بن سلمة عن خالد الحذاء، فقال: رواه غير واحد عن خالد الحذاء ليس فيه (سمعت)، وقال غير واحد أيضًا عن حماد بن سلمة ليس فيه (سمعت)».

وانظر لأهمية جمع طرق الحديث، والتي بها يتبين نقاد الحديث أخطاء الرواة.

الشرط الثاني لقبول السماع: أن يكون الراوي نفسه يصلح للاستدلال بخبره؛ ولذا يختلف في ذلك الراوي الثقة الحافظ الضابط لحديثه من الراوي الضعيف الذي قد يكون له أوهام ويكثر خطؤه.

الشرط الثالث: السلامة من المعارض المؤثر؛ فنقاد الحديث كانوا يضعون اعتبارًا لكل الروايات التي ترد وتصح وتثبت عدم سماع راوي من شيخه، وإن كان هذا الشيخ هو أبوه، ويتتبعون تواريخ الميلاد وأماكن تنقل الرواة وإمكان اللقاء أو استحالته وهكذا حتى يعلم هل فعلا يمكن لهذا الراوي السماع كما صرح من شيخه أم وهم؟

وهناك صيغ لاتصال الإسناد تعامل كالسماع كالمكاتبة والإجازة والوجادة، ويدخل فيها:

أ- العرض على الشيخ:

وهي أن يقرأ الراوي أحاديث الشيخ عليه، ويقره الشيخ بصحتها، ويقول قرأت على فلان أو قرئ على فلان وأنا أسمع، يقول الترمذي في كتابه (العلل): «القراءة على العالم إذا كان يحفظ ما يقرأ عليه، ويمسك أصله فيما يقرأ عليه إذا لم يحفظ هو صحيح عند أهل الحديث مثل السماع».

ب- الإجازة: ولها صور:

١- المناولة: أن يناول الشيخ أحاديثه مكتوبة للتلميذ، ويأذن له روايتها عنه، ذكرها الخطيب في "الكفاية" ص٤٦٦، وقال: «يجوز للطالب روايته عنه، وتحل محل السماع».

٢- الإعلام: أن يعلم التلميذ شيخه أن لديه بعض أحاديثه، ويأخذ إذنه في أن يرويها عنه، وبعض أهل الحديث لم يكن يأخذ بالرواية بهذه الطريقة ويتشدد حتى يعلم الشيخ ما يروى، وقال أبو طاهر السلفي: في "الوجيز في ذكر المجاز والمجيز" ص٥٧: «الأصل في ذلك معرفة الراوي وضبطه وإتقانه على أي وجه كان سماعًا أو مناولة أو إجازة».

٣- المكاتبة: فيكتب الشيخ للتلميذ، ويرويه عنه بصيغة: كتب لي فلان، قال الخطيب في "الكفاية" ص٤٨٠: «إذا عرف المكتوب إليه خط الراوي وثبت عنده أنه كتابه إليه فله أن يروي عنه ما تضمن كتابه».

ج- الوجادة:

فيقول الراوي وجدت في كتاب فلان، ويدخل فيها الوصية بالكتب فيوصي الشيخ بكتبه لشخص معين، وهذه الصيغة أيضًا البعض شدد في الرواية بالوجادة شرط حصول الثقة بالموجود كمعرفة خط الكاتب، قال الخطيب في "الكفاية" ص٥٠٤: «لا فرق بين أن يوصي العالم لرجل بكتبه وبين أن يشتريها ذلك الرجل بعد موته في أنه لا يجوز له الرواية منها إلا على سبيل الوجادة».

ثم القسم الأخير في صيغ الاتصال هو صيغ تحتمل السماع ولا تنفي بذاتها الانقطاع كـ(عن وأن)، كثير من الرواة استعمل (عن) للتخفيف، أخرج أحمد في "العلل": «قول عفان بن مسلم: جاء جرير بن حازم إلى حماد بن زيد فجعل جرير يقول: حدثنا محمد قال: سمعت شريحًا، فجعل حماد يقول: يا أبا النضر: عن محمد عن شريح».

والعلماء في تلقي الإسناد المعنعن على مذاهب: منهم من يعتبره من قبيل المرسل، وينسب هذا لشعبة بن الحجاج كما ورد في (المحدث الفاصل للرامهرمزي)، وهذا المذهب مهجور يقال إن شعبة نفسه تراجع عنه، والصحيح كما ذكر ابن الصلاح: أنه من قبيل الإسناد المتصل بشرط أن يكون الذين أضيفت لهم العنعنة قد ثبتت ملاقاتهم بعضهم بعضًا مع براءتهم من التدليس.

المبحث السابع
نقد المتون

نقد المتون أو ما يعرف بمعرفة (علل الحديث) هو من أدق فروع علوم الحديث، وهو ما كان ينفق فيه نقاد الحديث أعمارهم، وليس كما يتصور البعض أنهم كانوا يبحثون عن الأحاديث وجمعها وفقط، بل كانوا يهتمون بمعرفة علل الأحاديث أكثر من معرفة أحاديث جديدة، وهذا كما قال الإمام عبد الرحمن بن مهدي: «لأن أعرف علة حديث عندي أحب إلي من أن أكتب عشرين حديثًا ليس عندي». [أخرجه الحاكم في المعرفة ص١١٢].

ومباحث العلل هي خاصة بالأحاديث التي ظاهرها الصحة، وهي أحاديث لثقات بإسناد ظاهره الاتصال، والمحدثون لم يكتفوا بأن يكون للحديث إسنادٌ صحيح حتى يحكم له بالصحة، والعلل قد تكون خفية أو ظاهرة، وفي الإسناد أو في المتن، وقادحة أو غير قادحة، وكذلك العلل في المتن توجب الطعن في الإسناد، ويتتبع المحدث الرواة حتى يتبين ممن جاء الخطأ في المتن، ولم يسلم من الوهم أوثق النقلة، فمثلًا نجد لشعبة في علل ابن أبي حاتم أنه أخطأ في تسعة مواضع، وذكر أخطاء لسفيان الثوري في ثلاثة مواضع.

وقبل أن نلقي الضوء على علم العلل الذي يهتم بالعلل التي قد تظهر في المتون أو الأسانيد، هناك فرع في علوم الحديث قد يجهله البعض هو **(مشكل الحديث)**، وهو يختلف عن العلل، ويختص ببيان الإشكال أو التعارض الظاهر بين الأحاديث، وهو ما قد يستخدمه البعض للطعن في صحة الأحاديث ظنًا منهم أنه يعارض أصلًا من الأصول، وهذا الأمر قديمٌ جدًا كتب فيه الإمام الشافعي رحمه الله "مختلف الحديث"، والطحاوي "شرح مشكل الآثار" وهو من أجمع وأنفع ما كتب في هذا المجال، وابن قتيبة "تأويل مختلف الحديث"، وغيرهم.

ولهذا نقول لكل من يستشكل معنىً في حديث أو ظنه معارضًا لنص في كتاب الله اقرأ قليلًا في ردود من سبقنا على هذا الاستشكال، فقد يكون أصلًا الحديث ضعيف أو أخطأ بعض الرواة فيه أو لا يصح، وقد يكون الخطأ في فهمك وتناولك للمصطلحات، وهذا أمر وارد علينا جميعًا لا يعيب في أحد؛ ولهذا قال تعالى: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}، ولكن لا ترد الأحاديث حتى تظهر بينة قوية على أنها لا تصح.

كما أن العلماء لم يكونوا يقبلون الروايات قبل فحص المعاني التي تحملها، وهل المعنى الوارد في هذه الرواية موجود في روايات أخرى أو عليه أدلة أخرى من أدلة الشرع؟ أم هو قاصر على هذه الرواية وحدها؟ وللإجابة على هذا السؤال اعتنى العلماء بالشواهد للروايات، والشاهد عند المسلمين ثلاث مراتب:

- **المرتبة الأولى:** شاهد لكل من الواقعة والمعنى (أو الحكم).
- **والمرتبة الثانية:** شاهد للمعنى (أو للحكم فقط) في واقعة أخرى.
- **والمرتبة الثالثة:** أصل يندرج تحته المعنى (أو الحكم) الوارد في الحديث.

وإذا لم يشهد للرواية شاهد من المرتبة الأولى ولا من الثانية ولا من الثالثة فإننا نتوقف في قبول الرواية ولو رواها الثقات، فقد توقف العلماء في حديث ابن عباس في الأرضين السبع الذي قال فيه: (في كل أرض آدم كآدم، ونوح كنوح...) إلى آخر الحديث، مع صحة إسناد الرواية إلى ابن عباس كما قال البيهقي، لكون الرواية تفردت بهذا المعنى، وليس في الشرع الشريف لا في القرآن ولا في السنة ولا في غيرهما من أدلة الشرع ما يشهد لهذا المعنى.

وهنا يبرز سؤال آخر شهير: لماذا لا نرد الأحاديث التي تخالف العقل؟

أولًا: هذه مقولة فاسدة لفساد معيارها، فالمعيار الذي وضعوه هنا هو العقل، والعقل معلوم أنه أمر نسبي، بمعني عقلي غير عقلك غير عقل كل من حولي، بل إن عقل الشخص نفسه وهو طفل قبل العشر سنوات يختلف عن عقله قبل دراسته

الجامعية في تخصص، يختلف عن عقله لو درس دراسات عليا جامعية في تخصصه وسعت له مداركه ومعارفه؛ لهذا المعيار غير الثابت سينتهي بك لإنكار كل الأحاديث؛ لأن كل شخص سينكر مجموعة يعتبرها تناقض العقل (عقله)، وسينتهي بنا الحال إلى إنكار حتى بعض الآيات في كتاب الله التي يراها تناقض العقل، وهذا ما حدث بالفعل إلى إنكار آيات المعجزات، بل وأشهرها: الإسراء والمعراج الذي قلما تجد منكرًا للسنة يعترف به.

ثانيًا: عقل جميع الخلق ناقص، بل كل صفاتهم ناقصة بعكس الوحي منزه عن النقص؛ لذا فديننا قائم على الاستسلام للوحي وتعاليمه، وأن يكون هو المعيار الذي نحاكم له أقوالنا وأفعالنا؛ لأن وحي الخالق سبحانه كامل مكتمل منزه عن النقص، أنزله لنا ليبين لنا ما يحبه ويرضاه، وما يجب أن نتجنبه ونتحاشاه؛ لذا فالتسليم للوحي هو من صلب عقيدة المسلم.

لهذا الأولى التحقق من أن هذا الكلام يصح نسبته للرسول ﷺ، وجمع الطرق التي نقلته عنه ليتم التأكد أنه نقل بمعناه الصحيح، ولم يوهن الناقل أو يدرج كلمات من عنده كشرح مثلًا لكلام النبي، فيتوهم من بعده أنه من ضمن كلام النبي، وهكذا جهود مبذولة للتحقق أن هذا فعلا من جملة الوحي فلا يفوتنا أجر اتباعه، ولا نقع في وزر مخالفته وهذا هو الأولى.

ثالثًا: من ظن أنه جاء الآن ليكتشف بعقله ما عجز عشرات الآلاف من عقول العلماء قبله عن اكتشافه فنظن أنه واهم تمامًا، بمقارنة بسيطة عما يمتلكه هو من أدوات اليوم ومع ما امتلكوه هم سترجح كفة ما امتلكه العلماء بكل تأكيد، وليكن صاحب العقل هذا صادقًا مع نفسه وليخبرنا مدى علمه بكتاب الله وكم يحفظ وكم يرتل يوميا؟ ومدى علمه بالمتواتر من عمل رسول الله ﷺ وصحابته؟ ومدى علمه بالمتشابه والمحكم من كتاب الله؟ والمفصل والمجمل؟ وتواريخ نزول الآيات وأسباب نزولها؟ ومدى علمه بطرق أي حديث استشكل عنده؟ ناهيك أصلًا عن مدى علمه

بلغة العرب التي نزل بها كلام الله؟ كلها أدوات حظه منها أقل بكثير من حظ علمائنا فلا أدرى كيف يقارن الثرى بالثريا؟!

رابعًا: العقل هو ببساطة انعكاس لما رآه ووافق هواه وديننا ليس للأهواء، بل اتباع الهوى مذموم في أكثر من موضع من كتاب الله فقال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ٢٩﴾ [الروم: ٢٩]، وقال أيضًا: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ٢٣﴾ [الجاثية: ٢٣]، وهذا ما نحذر منه: لاتحكم عقلك على النص، وإلا ستنجرف بعدها لطريق صعب الرجوع منه عياذًا بالله، ولاينجي منه إلا الله، وكم من عالم زل حين اغتر بعلمه، فقال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، فهذا عالم انكب على آيات الله، ولكنه حين بدأ استعمال الهوى (اتبع هواه) ضل وزاغ عن الحق، فبدلًا من أن يكون تعلمه الآيات وسيلة لرفعة مكانه عند الله، أصبح اتباعه للهوى أدعى لتشبيه المولى عز وجل له بالكلب الذي يلهث في كل حال، وإنا لله وإنا إليه راجعون؛ ولهذا حذرنا الله عز وجل من سوء عاقبة هذا الطريق، ونسأل الله العافية وألا يفتننا في ديننا.

وإذا ألقينا نظرة على علم علل الحديث فإن معرفة العلل لا تتأتى للمحدث إلا بجمع طرق الحديث؛ ولهذا كان المحدثون ينفقون أعمارهم وأموالهم في التنقل بين البلدان وجمع الطرق المختلفة للحديث الواحد حتى يقفوا على صحته أو علة خفية لا تظهر عند روايته من وجه واحد.

قال أحمد: «الحديث إذا لم تُجمع طرقه لم تفهمه، والحديث يفسر بعضه بعضًا».

وقال علي بن المديني: «الباب إذا لم تُجمع طرقه لم يتبين خطؤه».

وقال عبد الله بن المبارك: «إذا أردت أن يصح لك الحديث فاضرب بعضه ببعض».

قال ابن حبان: «سمعت محمد بن إبراهيم بن أبي شيخ الملطي يقول: جاء يحيى بن معين إلى عفان ليسمع منه كتب حماد بن سلمة، فقال له: سمعتها من أحد؟ قال: نعم، حدثني سبعة عشر نفسًا عن حماد بن سلمة، فقال: والله لا حدثتك، فقال: إنما هو درهم وانحدر إلى البصرة وأسمع من التبوذكي، فقال: شأنك، فانحدر إلى البصرة، وجاء إلى موسى بن إسماعيل، فقال له موسى: لم تسمع هذه الكتب من أحد؟! قال: سمعتها على الوجه من سبعة عشر نفسًا وأنت الثامن عشر! فقال: وماذا تصنع بهذا؟ فقال: إن حماد بن سلمة كان يخطئ، فأردت أن أميز خطأه من خطأ غيره، فإذا رأيت أصحابه قد اجتمعوا على شيء علمت أن الخطأ من حماد نفسه، وإذا اجتمعوا على شيء عنه، وقال واحد منهم بخلافه، علمت أن الخطأ منه لا من حماد، فأميز بين ما أخطأ هو بنفسه وبين ما أخطئ عليه».

قال ابن حجر: «السبيل إلى معرفة سلامة الحديث من العلة كما نقله ابن الصلاح عن الخطيب: أن يُجمع طرقه، فإن اتفقت رواته واستووا ظهرت سلامته، وإن اختلفوا أمكن ظهور العلة، فمدار التعليل في الحقيقة على بيان الاختلاف».

قال العلائي: «ووجوه الترجيح كثيرة لا تنحصر، ولا ضابط لها بالنسبة إلى جميع الأحاديث، بل كل حديث يقوم به ترجيح خاص، وإنما ينهض بذلك الممارس الفطن، الذي أكثر من الطرق والروايات؛ ولهذا لم يحكم المتقدمون في هذا المقام

بحكم كلي يشمل القاعدة، بل يختلف نظرهم بحسب ما يقوم عندهم في كل حديث بمفرده، والله أعلم».

وقال ابن الصلاح: «يستعان على إدراكها بتفرد الراوي وبمخالفة غيره له، مع قرائن تنضم إلى ذلك تنبه العارف بهذا الشأن على إرسال في الموصول، أو وقف في المرفوع، أو دخول حديث في حديث، أو وهم واهم بغير ذلك، بحيث يغلب على ظنه ذلك، فيحكم به أو يتردد فيتوقف فيه، وكل ذلك مانع من الحكم بصحة ما وجد ذلك فيه».

وللعلل أسباب كثيرة نأخذ منها على سبيل المثال:

١- **التفرد:** وهنا وجب أن ننبه على أمر يختلط على البعض، وهو أن حديث الآحاد يختلف عن حديث الأفراد، أحاديث الآحاد منها المشهور والعزيز والأفراد وهي لها أكثر من طريق في الجملة، وإن كان الحديث له طريق واحد يصل به لقائله هنا يسمى (فرد – غريب)، والحديث الذي به تفرد يلزمه قرائن قوية لقبوله، فالتفرد في الجملة لا يعني ضعف الحديث، فأحاديث الأفراد فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنكر، والعبرة في النهاية بالقرائن، والمتفرد، وقوة حفظه، وإمامته، وبالشيخ الذي تفرد عنه هل هو من المشاهير الذين اشتهرت أحاديثه ودونت أم لا؟ وهل له تلاميذ حفاظ حريصون على ضبط أحاديث شيخهم؟ فأن يكون المتفرد الثقة تفرد عن راوٍ عالم حريص على نشر ما عنده من الحديث وتدوينه، ولهذا العالم طلاب كثيرون مشهورون، بل وقد يكون له كتب معروفة قيّد حديثه فيها، وكان تلامذته حفاظًا حريصين على ضبط حديثه حفظًا وكتابة، فإن شذّ هذا الراوي عن هؤلاء فروى ما لا يروونه فإن هذا ريبة قد توجب زوال الظن بحفظه حسب القرائن، بينما لو انفرد راوٍ بحديث عمن ليس على هذه الشاكلة من مشايخه فليس هناك ريبة في

الأمر.

وهذا ما قاله الإمام مسلم في مقدمة صحيحه: «فأما من تراه يعمد لمثل الزهري في جلالته وكثرة أصحابه الحفاظ المتقنين لحديثه وحديث غيره أو كمثل هشام ابن عروة، وحديثهما عند أهل العلم مبسوط مشترك، وقد نقل أصحابهما عنهما حديثهما على اتفاق منهم في الكثرة، فيروي عنهما أو عن أحدهما العدد من الحديث ممن لا يعرفه أحد من أصحابهما، وليس من قد شاركهم في الصحيح الذي عندهم فغير جائز قبول حديث هذا الضرب من الناس».

٢- **زيادة الثقات:** وهو أن يروي جماعة من الثقات حديثًا واحدًا بإسناد واحد ومتن واحد، ولكن بعضهم يذكر زيادة في الإسناد أو المتن لم يذكرها الآخرون.

الزيادة في الإسناد: أن يزيد راويًا فيجعل رواية مرسلة متصلة أو منقطعة فيوصلها بهذا الراوي الذي زاده، وهنا وجب التنبيه على أمر، وهو أن ناقد الحديث يقول والرواية الصحيحة المرسلة، وقوله هذا لا يقصد به صحة نسبها لقائلها، فالإرسال لم يجعل الرواية تحقق شروط الصحة وهكذا لا يحتج بها ولا تقبل، وإنما ذكر أن من وصل الرواية قد أخطأ وزاد راويًا من عنده.

ذكر الخطيب في "الجامع لأخلاق الراوي" (حديث رقم ١٥٧٦): قال الميموني: «تعجب إلي أبو عبد الله -يعني الإمام أحمد- ممن يكتب الإسناد ويدع المنقطع، ثم قال: وربما كان المنقطع أقوى إسنادًا وأكبر، قلت: بينه لي، كيف؟ قال: يكتب الإسناد متصلًا وهو ضعيف، ويكون المنقطع أقوى إسنادًا منه، ثم قال: لو كتب الإسنادين جميعًا عرف المتصل من المنقطع، يعني ضعف ذا وقوة ذا».

والزيادة في المتن: هي كثيرة في الأحاديث، ولعل من فوائد كتب (المستخرجات) على الصحيحين تبيين بعض ما يقع من زيادات للرواة في المتون، واعتنى جماعة

من فقهاء المحدثين كأبي داوود السجستاني في "السنن"، وأبي بكر النيسابوري في "الزيادات على كتاب المُزَني" والبيهقي في "السنن"، وهذه الزيادات قد يضيفها الراوي من قبيل الشرح أو تبيين معنى لم يكن ليحصل بدونه.

وختامًا أحببت أن أؤكد على بطلان دعوى من يقول أن المحدثين كانوا يقبلون الرواية بمجرد تزكية الرواة، لأن هذا اتهام باطل ولا يقوله إلا من جهل مجهود المحدثين نقاد الحديث، أو مدلس يريد فتنة الناس في دينهم، ويزعزع ثقتهم في صحة ما وصلنا من الدين عن رسول الله ﷺ فاجتزأ شرطًا من شروط قبول الحديث، وبنى باطلًا عليه بإهمال بقية الشروط؛ لأن معلوم عند أهل العلم أن صحة الإسناد لا تعني صحة الحديث، ولا المتن الجيد يعني أنه لا يحتاج لإسناد صحيح، فالحديث الصحيح يستوجب أن يحكم على إسناده ومتنه معًا.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم.

المبحث الخامس

اعتراضات على أشهر نقاد الحديث

الإمام البخاري

الاعتراض الأول: تجريح بعض الأئمة له

جذور هذا الاعتراض: قول الذهلي في الإمام البخاري ثم تبعه أبو حاتم وأبو زرعة الرازيين أن البخاري يقول: «أن اللفظ بالقرآن مخلوق»، وقال الذهلي: «أظهر البخاري قول اللفظية، واللفظية عندي شر من الجهمية».

وقد رد كثير من الأئمة على قولهم هذا، وبيان أنه لا يؤثر على إمامته في الحديث من عدة أوجه:

الوجه الأول: هذا القول لم يكن موجهًا إلى الطعن في عنايته وعلمه بالحديث ونقده، ولم يثبت عن أحد أنه جرح فيه لجهله أو لضعف علمه بالحديث، ونقده ومسائله وعلله.

الوجه الثاني: حتى لو تكلم البعض في البخاري فالعشرات أجمعوا على عدالته وإمامته في مجاله وفنه، وهذا معلوم للجميع أن قل من لا يتكلم فيه أحد، والجرح والتعديل كالميزان ينظر في أقوال من تكلم في الشخص مقارنة بمن عدّلوه، وهل الجرح قادح أو ينزل من شأنه؛ لأنه معلوم اختلاف العقائد ووجود المقارنات والضغائن بين القرائن والعلماء يأخذون هذا الاختلاف بعين الاعتبار.

الوجه الثالث: ولو فرضنا البخاري أخطأ فهو بشر والبشر يخطئ ويصيب، والبخاري كما قلنا عالم رفيع القدر في فنه، والعالم يستفاد من علمه ويتقى زلته، ولا يقول أحد أن نسقط عالما ونسقط علمه الصحيح والذي وافقه عليه العلماء لزلة أو ذنب لا يقدح في علمه، وإلا فهكذا لن نجد أحدًا يؤخذ منه علم ويندثر العلم.

الوجه الرابع: البخاري له أبواب عديدة ترد على الجهمية، ويثبت فيها لله صفات العلو والكلام واليدين والعينين، وهذا إن دل يدل على سوء فهم من قدح فيه وقال أنه من الجهمية أو أسوأ حالًا منهم؛ لأنهم يعطلون الصفات والأسماء.

الوجه الخامس: البخاري وضح سوء الفهم الذي حدث منهم، قال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٢/٣٥٤-٣٥٥): «أن البخاري قال لأبي عمرو الخفاف: من زعم أني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب، فإني لم أقل هذه المقالة، إلا أني قلت: أفعال العباد مخلوقة».

وضح شيخ الإسلام ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل (١/٢٦٤): «البعض قالوا: التلاوة هي المتلو، وقصدوا أن التلاوة هي القول والكلام المقترن بالحركة، وهي الكلام المتلو، وآخرون قالوا: بل التلاوة غير المتلو، والقراءة غير المقروء، وأرادوا بذلك أن أفعال العباد ليست هي كلام الله، ولا أصوات العباد هي صوت الله، وهذا هو الذي قصده البخاري وهو مقصود صحيح».

الاعتراض الثاني: لم يقع الإجماع على أحاديث الصحيح

ويستندون لقول بعض الأصوليين باستحالة الوقوف على إجماع، كقول الإمام أحمد كما جاء في مسائل الإمام أحمد برواية عبد الله حيث قال: «ما يدعي الرجل فيه الإجماع هذا الكذب، من ادعى الإجماع فهو كذب، لعل الناس قد اختلفوا».

ونستعرض رد الأئمة على هذا القول:

أولًا: الإجماع له عدة أنواع وصور يقع بها:

١- الإجماع على ماهو معلوم من الدين بالضرورة كالإجماع على فرض الصلاة والصوم والحج وتوحيد الله، وتحريم الشرك والفواحش والظلم والربا وغيرها، وهذا الإجماع محل اتفاق بين العلماء وهو حجة مقطوع بها.

٢- إجماع الأمة بأن يشتهر القول أو الفعل من بعض العلماء ويسكت الباقون عن إنكاره وهو ما يذكره الفقهاء كثيرًا وألفوا فيه مؤلفات، قال شيخ الإسلام ابن تيمية

في نقد مراتب الإجماع: «من احتج بالإجماع بمعنى عدم العلم بالمنازع فقد اتبع سبيل الأئمة، وهذا هو الإجماع الذي كانوا يحتجون به في مثل هذه المسائل».

٣- الإجماع الأصولي وهو ما يعرف بالإجماع النطقي أو الصريح، وعرّفه الأصوليون: أنه اتفاق علماء العصر من أمة محمد ﷺ على أمر من أمور الدين (كما جاء في روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة ١/ ١٩٦)، وهذا الإجماع ضرب من ضروب الخيال لعدة أسباب:

- **أولها:** الاختلاف في تحديد صفات الذين ينعقد بهم الإجماع، فهل نأخذ برأي علماء الكلام أم لا، وأصحاب البدع، وهل يشترط فيهم الحرية وغيرها من الصفات؟
- **ثم:** صعوبة لقاء جميع علماء المسلمين من شتى البلدان.
- **كذلك:** تفاوت العقول والأفهام والظنون فيرى كل عالم رأي في مسألة قد يوافق أو يخالف رأي غيره.

وأهم شيء لا يلزم لصحة الإجماع وقوع النطق به من جميع العلماء؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في نقد مراتب الإجماع: «دعوى الإحاطة بما لا يمكن الإحاطة به، ودعوى أن الإجماع الإحاطي هو الحجة لا غيره، فهاتان قضيتان لابد لمن ادّعاهما من التناقض إذا احتج بالإجماع، فمن ادعى الإجماع في الأمور الخفية بمعنى أنه يعلم عدم المنازع فقد قفا ما ليس له به علم، وهؤلاء الذين أنكر عليهم الإمام أحمد»؛ ولهذا من يعترض بأنه يستحيل وقوع الإجماع عليه التفصيل، ويبين أي نوع يستحيل وقوعه.

ثانيًا: الإجماع خاص بأهل الفن والصنعة، وهذا الإجماع يمكن وقوعه والوقوف عليه بتتبع أقوال العلماء المختصين في هذا الفن، يقول ابن القيم في "مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة" ص١٥٠٢: «الاعتبار في الإجماع

على كل أمر من الأمور الدينية بأهل العلم دون غيرهم، كما لم يعتبر في الإجماع على الأحكام الشرعية إلا العلماء بها دون المتكلمين والنحاة والأطباء، كذلك لايعتبر في الإجماع على صدق الحديث وعدم صدقه إلا أهل العلم بالحديث وطرقه وعلله وهم علماء أهل الحديث».

ثالثًا: تعرض الكتاب للنقد لا ينافي الإجماع على صحته وهذا من عدة أوجه:

١- النقد وجه لبعض ما في الكتاب، وهذا يعني أن السكوت عن باقي الكتاب هو إجماع على صحته؛ وإلا فلم سكتوا عنه، وأقلها نقول ما تكلموا فيه هو ما هو خارج الإجماع، ولا يقال لم يحدث الإجماع مطلقًا.

٢- أغلب الانتقادات الموجهة للأحاديث في الصحيحين انتقادات إسنادية راجعة إلى الطعن في الرواة، وهذه تكون غير قادحة إذا ثبت المتن من حديث رواة آخرين، وهذا ما قاله ابن الصلاح في "صيانة صحيح" مسلم ص١٧٧ عن انتقادات الدارقطني للإمام البخاري: «أكثر استدراكاته على الشيخين قدح في أسانيدهما غير مخرج لمتن الحديث من حيز الصحة».

٣- نسبة الأحاديث المنتقدة في الصحيحين عمومًا، وفي صحيح البخاري على وجه الخصوص قليلة جدًا، والأحاديث التي انتقدها الدارقطني على البخاري ومسلم على ثلاثة أقسام: قسم متفق على نقده وأعلها الدارقطني كما أعلها الشيخان، وأشارا إلى ذلك في كتابيهما بما يعرفه أهل الحديث، وقسم انتقده الدارقطني وترجح فيه قول الشيخين، وقسم انتقده الدارقطني وترجح فيه قوله، وهذا قسم ضئيل جدًا لم يتجاوز نسبة الواحد في المئة، وهذا يؤكد صحة كتاب الصحيح بنسبة ٩٩٪، وأعتقد لا يوجد كتاب تعرض للنقد وخرج بهذه النسبة.

وأختم بقول لابن الوزير في (الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم ١/١٥٨-١٥٩): «اعلم أن المختلف فيه من حديثهما هو اليسير، وليس في ذلك اليسير ما

هو مردود بطريقة قطعية، بل غاية ما فيه أنه لم ينعقد عليه الإجماع، وأنه لا يعترض على من عمل ولا على من توقف في صحته، وليس الاختلاف يدل على الضعف ولا يستلزمه»، ثم قال: «وإنما الحجة بالإجماع لا في الخلاف، والإجماع لم ينعقد على ضعف شيء فيهما، وإنما انعقد على صحتهما إلا ما لا نسبة له إلى ما فيهما من الصحيح».

هذا والله تعالى أعلى وأعلم.

الاعتراض الثالث: وجود أحاديث مقبولة لمن عرف بالتدليس

الرد مباشرة على هذا الاعتراض:

التدليس ببساطة هو ليس بكذب، والمدلس هو شخص أراد أن يخفي عيبًا في الإسناد كراوٍ ضعيف مثلًا، فلم يصرح باسم الضعيف وجاء مباشرة بشيخه الأقوى منه ووضع صيغة تحتمل السماع، وهذا الحديث بطل لأنه أصبح فيه سقط.

الآن: ما الحكم على الراو؟

- مدلس.

هل كذب؟

- لا.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «الْمُدَلَّس: سُمِّيَ بذلك لكون الراوي لم يُسمِ من حدّثه، وأوهم سماعه للحديث ممن لم يحدثه به، واشتقاقه من: الدَّلَس، وهو اختلاط الظلام [بالنور]، سمي بذلك لاشتراكهما في الخفاء، ويرد المدلَّس بصيغة من صيغ الأداء تحتمل وقوع اللقي بين المدلِّس ومن أسند عنه كـ"عن" وكذا "قال"، ومتى وقع بصيغة صريحة لا تَجَوُّز فيها؛ كان كذبًا» انتهى من"نزهة النظر" (ص٨١).

ومثال ذلك: بقية بن الوليد، قال ابن حبان رحمه الله تعالى: «ولقد دخلت حمص وأكثر همي شأن بقية، فتتبعت حديثه فرأيته ثقة مأمونًا، ولكنه كان مدلسًا: سمع من عبيد الله بن عمر، وشعبة، ومالك أحاديث يسيرة مستقيمة، ثم سمع عن أقوام كذابين ضعفاء متروكين، عن عبيد الله بن عمر وشعبة ومالك مثل: المجاشع بن عمرو، والسري بن عبد الحميد، وعمر بن موسى المثيمي، وأشباههم، وأقوام لا يُعرفون إلا بالكُنى، فروى عن أولئك الثقات الذين رآهم بالتدليس ما سمع من هؤلاء الضعفاء، وكان يقول: قال عبيد الله بن عمر عن نافع، وقال مالك عن نافع كذا،

فحملوا عن بقية عن عبيد الله، وبقية عن مالك، وأسقط الواهي بينهما» انتهى من "المجروحين" (١/ ٢٠٠-٢٠١).

أي أن بقية بن الوليد كان شيخه مالك بن أنس، لكن كان ربّما روى أحاديث لم يسمعها من الإمام مالك، وإنما سمعها من راوٍ ضعيف عن مالك، فإذا أراد بقية أن يُخبر بالحديث، أسقط الراوي الضعيف الذي بينه وبين الإمام مالك، ثم يقول: عن مالك، أو قال مالك.

والراوي المدلِّس إذا كان ثقة، فإنه تقبل أحاديثه باستثناء ما يظن أنه دلّس فيها، فالتدليس ليس من الكذب الذي يؤثر في عدالة الراوي، لو كذب أمر آخر، كأن قال حدثني مباشرة، وهذه طامة لكن هو ليس كذابًا؛ لأن الحديث فعلًا موجود، وليس من اختلاقه، ولكن انظروا لدقة المحدثين، سبب رد الحديث أن الضعيف الساقط قد يكون غيّر في ألفاظ الحديث بسبب ضعف حفظه، ومن هنا الخطر.

إذن هل يقبل أحاديث من المدلس؟

- نعم، وهذا ما عليه العلماء يقبلون ما تبين صحته من أحاديثه، والتي صرح فيها بالسماع.

قال الشافعي رحمه الله تعالى: «ومن عرفناه دلس مرة فقد أبان لنا عورته في روايته، وليست تلك العورة بالكذب فنرد بها حديثه، ولا النصيحة في الصدق، فنقبل منه ما قبلنا من أهل النصيحة في الصدق، فقلنا: لا نقبل من مدلس حديثًا حتى يقول فيه: حدثني، أو سمعت» انتهى من "الرسالة" (ص٣٧٩-٣٨٠).

وقال ابن رجب رحمه الله تعالى: «وأما قول الشافعي: إن التدليس ليس بكذب يرد به حديث صاحبه كله، فهذا أيضًا قول أحمد وغيره من الأئمة، لأن قول المدلس "عن فلان" ليس بكذب منه، وإنما فيه كتمان من سمع منه عن فلان، وحكى الخطيب هذا القول عن كثير من العلماء» انتهى من "شرح علل الترمذي" (٢/٥٨٤).

لكن يجب التثبت من الأحاديث التي يُظن أنه دلّس فيها، فلا تُقبل حتى يصرّح بأنه سمع الحديث من شيخه، كأن يقول: "أخبرنا" أو "حدثنا"، ونحو هذا من العبارات التي تدل على أنه سمع الحديث مباشرة من الشيخ، ولم يُسقط راويًا من الإسناد، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «وحكم من ثبت عنه التدليس إذا كان عدلًا: أن لا يقبل منه إلا ما صرح فيه بالتحديث، على الأصح» انتهى من"نزهة النظر" (ص٨١).

آخر نقطة اكتشاف التدليس هو يعكس براعة المحدثين؛ فهذا ليس بالأمر السهل أبدًا؛ لأن الراوي قد يدلس عن شيخ عاصره فعلًا، وقد يكونا قد التقيا، ولكن كون أن المحدثين اكتشفوا أن هناك واسطة أسقطها فهذه براعة تعكس كم المجهود المبذول في اكتشاف الخفايا وما لم يظهر في الحديث.

والله تعالى أعلى وأعلم.

الفصل الثالث

ادعاءات
بأن هناك أحاديث تعارض القرآن

الفصل الثالث

ادعاءات بأن هناك أحاديث تعارض القرآن

تمهيد

هل أساءت الأحاديث لرسول الله ﷺ؟

قد يدّعي البعض أن هناك أحاديث تعارض كتاب الله عز وجل، أو أنها أساءت لرسول الله ﷺ، وحين تناقشه تجد أحد هذه الأمور:

١- إما الحديث ضعيف أو منكر، وضعفه بعض أهل العلم أو بينوا علته.

٢- وإما الإشكال في فهمه للحديث، وعدم جمعه لباقي الأحاديث وإلمامه بكل هدي رسول الله ﷺ.

٣- وإما الإشكال في فرضية فرضها هو من عنده بوجود هذا الفهم في كتاب الله، ومن ثم الحديث عارض كتاب الله، وفي النهاية تجد أنه لا يوجد نص عارضه الحديث في كتاب الله.

يعني كمثال: حديث سن زواج السيدة عائشة رضي الله عنها، هل يوجد نص في كتاب الله حدد سن الزواج؟ أم هل الزواج خالف الأعراف وقتها، وكانت مثلا طفلة لم تصل لسن الزواج أو اعترض أحد من أعداء الإسلام الذي كان وقتها يواجه كل العالم حوله؟! الاعتراض الوحيد تجده في عقل هذا المعترض، فهو ينظر لمثل هذا العمر في زمننا هذا، وفي بيئةٍ ورفاهيةٍ كالتي نعيش ويقول: كيف لهذا العمر أن يتزوج؟ ولم ينظر لاختلاف البيئة واختلاف الزمن، فمثلًا السيدة عائشة قبل زواجها بأشهر هاجرت من مكة للمدينة وأفضل وسائل الانتقال وقتها (البعير)، فهل يستطيع رجل في وقتنا الحالي وهو في عنفوان شبابه أن يسافر في الصحراء على ظهر البعير مسافة تتعدى الأربعمائة كيلومترا؟ أشك أنه يستطيع أن يواصل السير لنصف المسافة دون أن يصاب بشيء.

ولو رجعنا لقبل زمن الرسول ﷺ نجد الكتاب المقدس ذكر سنًا أصغر لزواج أنبياء كزواج نبي الله إسحاق عليه السلام من رفقة، والتي كانت في سن أقل من تسع سنوات بكثير؛ لذا فاختلاف البيئة واختلاف الزمن عاملان مؤثران في التكوين الجسماني، بل والنفسي للشخص، ومن يريد أن يفهم رواية أو واقعة عليه ألا يقطعها من السياق الزمني التي وقعت فيه، وأن يكون ملمًا بالظروف المحيطة لهذه الرواية.

ومثال آخر: الأحاديث التي تتحدث عن حياته الشخصية ﷺ، لا شيءَ فيها تعارض مع كتاب الله، ولا شيئًا انتقص من طهارة رسول الله ﷺ، وهذه الأحاديث الرواة لها من داخل بيت النبوة إما عن طريق أزواجه أو غلامه أنس أو مولاه أبي رافع، وأزواج النبي ﷺ أمرهم الله عز وجل بالتحديث عن بيت النبوة فقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾ [الأحزاب: ٣٤]، وهذا ليس كشفًا لما يحدث في البيت من أمور بين الأزواج، وإنما لسبب وجيه وهو أن ديننا دين كامل، لم يغفل عن أي صغيرة وكبيرة إلا وبين ما يرضي الله عز وجل فيها، وبالتأكيد الأمور التي بين الأزواج مهمة وتحتاج لتبيين، بل ومنها ما هو ذكر في القرآن وقد يفهم بطريقة خاطئة مثل فترة حيض المرأة، فقال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فقوله تعالى: {فاعتزلوا النساء} ثم قال: {ولا تقربوهن} يحتاج لمزيد توضيح في كيف يكون الاعتزال؟ وما معنى {ولا تقربوهن}؟ لهذا جاء التطبيق العملي لرسول الله ﷺ داخل بيته، وينقل الأمر زوجاته ليعلمن الأمة كيف كان يفعل رسول الله ﷺ هذا الأمر، وأحاديث تبين لمن كان له أكثر من زوجة، كيف يكون العدل بينهن؟ وما هو المباح أو به تخفيف؟ وما هو غير المباح أو يحتاج إلى كفارة لو فعله؟ فمعلوم أن ليس أيام السنة متشابهة، فقد يكون

يوم بارد يصعب فيه كثرة الاغتسال؛ لذلك من يعترض ويقول أن الأحاديث اتهمت رسول الله ﷺ –وحاشاه– أنه كان لا يهتم بالطهارة لمجرد أنه كان يؤجل الاغتسال عن أول وقته! وهذا لا يعرف أن الاغتسال بالماء ليس هو النوع الوحيد للطهارة في كتاب الله، فالطهارة الحسية عند الفقهاء رفع الحدث وما في معناه وزوال الخبث، وحتى لا نطيل للطهارة من الحدث ثلاثة أنواع: طهارة كبرى وهي الغسل، وطهارة صغرى وهي الوضوء، وطهارة بدل وهو التيمم، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَـٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا غَفُورٗا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: ٤٣].

ولو تناولنا شرحًا مختصرًا لهذه الأحاديث:

في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه [أخرجه مسلم (٣٠٩)، وأخرجه البخاري (٢٨٤)] الذي ذكر أنه ﷺ طاف على زوجاته في ليلة واحدة بغسل واحد، دلالةٌ واضحة على جواز وطء الزوجات في ليلة واحدةٍ، وتأخير الغسل الشرعي –وهو الطهارة التي يجب فيها أمور مخصوصة زائدة على مطلق النظافة– عن أول وقت وجوبه؛ ليجعله غسلًا واحدًا، وهو ما ذهب إليه جماعة السلف والخلف، وحكاه النووي إجماعًا في "المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم"، وأما الغسل بعد كل وطء فهو أكمل وأفضل؛ لما ثبت أنه ﷺ فعل ذلك أيضًا، فعن أبي رافع مولى رسول الله رضي الله عنه: أن النبي ﷺ طاف ذات يوم على نسائه يغتسل عند هذه وعند هذه، قال: قلت له: يا رسول الله، ألا تجعله غسلًا واحدًا؟! قال: «هذا أزكى وأطيبُ وأطهر»، [رواه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة الرقم ٣٧٧/١]، فيه دلالة ظاهرة على استحباب الغسل قبل المعاودة، وهذا مما لا خلاف فيه.

ولا منافاة بين حديث أبي رافع وحديث أنس؛ فإن النبي ﷺ فعل الأمرين في وقتين مختلفين؛ يقول النووي: «على تقدير صحَّته –يعني حديث أبي رافع– يكون هذا في وقتٍ وذاك في وقت والله أعلم، فمرة تركه رسول الله ﷺ بيانًا للجواز وتخفيفًا على الأمة، ومرة فعله لكونه أزكى وأطهر».

كما أن المستحب لمن أراد أن يطأ مرة ثانية أن يغسِل فرجه ويتوضأ، ويتأكد الاستحباب إذا عاود مع امرأةٍ غير التي كان جامعها، ودليل استحباب الوضوء لذلك: صريح قوله ﷺ: «إذا أتى أحدكم أهله ثم أراد أن يعود فليتوضأ» [أخرجه مسلم (٣٠٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه]، وجمهور العلماء على أن الوضوء في هذه الحالة مستحبّ، يقول الحافظ ابن رجب: «واستحبَّ أكثر العلماء الوضوء للمعاودة، وهو مرويٌّ عن عمر وغيره، وليس بواجبٍ عند الأكثرين، وأوجبه قليلٌ من أهل الظاهر ونحوهم» [فتح الباري لابن رجب (١/ ٣٠٢)].

ومن فوائد الوضوء في هذه الحالة: أنه يجمع بين تخفيف الحدَث والنظافة، وقد علم أن الإنسانَ لا يتوضَّأ بعد الوطء حتى يغسل ذكره، وذلك يقوّي العضو، ثم إنّ البدن يسكن من الانزعاج بتلك الساعَة فيعود مستريحًا.

وطوافه ﷺ على نسائه بغسل واحد يحتمل أنه ﷺ كان يتوضأ بينهما، ويحتمل أن يكون المراد منه بيان جواز ترك الوضوء؛ إذ ليس في الحديث ما يرجِّح أحدَ الاحتمالين، إلا أن بعضَ العلماء رجَّح الاحتمال الأول بدليلٍ منفصل؛ يقول الوزير ابن هبيرة: «الظاهر أنه ﷺ كان يتوضَّأ بين الوطأين أو يستنجي؛ لأنه هو الذي يليق بمكارمه وطهارته» [الإفصاح عن معاني الصحاح (٥/ ٢٩٠)].

ويستفاد منه: أن النبي ﷺ لم يترك النظافةَ بحال، وهو اللائق به، فكيف يُدَّعى بعد ذلك تكذيب الحديث، وأن فيه إساءةً للنبي ﷺ؟! والإشكال كل الإشكال في تلقي هذا الشخص للأحاديث، وسرعان ما يهاجمها ويمتد هجومه لكل المحدثين وكتب الأحاديث، ويزيد في مهاجمة كل كتب الفقه والعلماء، وكأنها متلازمة يرتبط

بعضها ببعض، وكل هذا لأنه لم يعمل بالهدي الرباني الذي جاء به الله عز وجل فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات: ٦].

لذا فالواجب عند سماع مثل هذه الشبهات الترويج والتبين من ثبوت هذه الادعاءات، ومعرفة ردود أهل العلم، وماذا قالوا فيها قبل أن تخوض في سب المحدثين والفقهاء والعلماء والافتراء عليهم أنهم ينقلون لنا كذبًا على الله ورسوله.

وودت أن أستعرض كل الأحاديث والشبهات التي يرددها البعض، إلا أني وجدت أنهم يخوضون في أمور تخالف كتاب الله عز وجل نفسه فمثلًا يعترضون على أحاديث فضائل الأعمال وكأنهم هم من سيحاسبون الناس! والله عز وجل قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ ...﴾ [يونس: ٢٦]، وقال أيضًا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا ...﴾ [النمل: ٨٩]، وقال أيضًا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ ...﴾ [الأنعام: ١٦٠]، أي أن مضاعفة الأجور هذه ذكرها الله عز وجل في كتابه؛ ولهذا من يعترض على أحاديث فضائل الأعمال وأن الله يضاعف الأجر لأعمال ذكرها الرسول ﷺ، هو يكذّب كلام الله سبحانه الذي وعد فيه بمضاعفة الأجر.

وهناك من يعترض على أحاديث نقل فيها رسول الله ﷺ غيبيات بدعوى ألا يعلم الغيب إلا الله، وأنه لا يُظهر على غيبه أحدًا، ولو أكملوا الآية التي تليها لعلموا كيف عرف الرسول ﷺ هذه الغيبيات فقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، فالله عز وجل هو وحده عالم الغيب، وهو من أخبر رسوله بهذه الغيبيات كعلامة ودلالة أنه مرسل من الله؛ لأنه لن يأتي من نفسه بهذه الغيبيات ويتحقق بعضها بالفعل في زمنه أو بعد وفاته أو يكون منها ما هو موجود في كتب أهل الكتاب الذين سبقونا وهو لم يطلع عليه! إخباره ﷺ على هذه

الغيبيات من دلائل وعلامات نبوته التي أيّده بها عز وجل، وهو سبحانه أخبر أنه قد يُطلع بعض رسله على هذه الغيبيات.

وهنا لنا وقفة مع حديث من أحاديث الغيبيات التي تحققت في زمننا هذا، وهي ظهور هذه الفئة من منكري السنة، ولهذا فإن هذا الحديث من دلائل نبوته ﷺ، فعن المقدام بن معدي كرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يوشِكُ أنْ يقعُدَ الرجلُ مُتَّكِئًا على أَرِيكَتِهِ، يُحَدَّثُ بحديثٍ مِنْ حديثي، فيقولُ: بينَنَا وبينَكُمْ كتابُ اللهِ، فما وجدْنا فيه مِنْ حلالٍ اسْتَحْلَلْناهُ، وما وجدَنا فيه مِنْ حرامٍ حرَّمْناهُ، ألَا وإنَّ ما حرَّمَ رسولُ اللهِ مثلَ ما حرَّمَ اللهُ»، [والحديث أخرجه ابن ماجه (١٢)، وأحمد (١٧١٩٤) باختلاف يسير، والترمذي (٢٦٦٤)، وأبي داوود (٢٦٠٤)].

بل العجب أن يصل الأمر بهم للاعتراض على كتاب الله نفسه، وعلى حدوده التي فرضها عز وجل كحد السرقة وقطع يد السارق الذي ذكر نصًا صريحًا في كتاب الله، ولم يعترض عليه أحد من الأمة على مدار القرون السابقة فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨]، وهذه آية في كتاب الله وليست حديثًا كما يصورون للناس أنهم يعترضون على مرويات ويريدون أن يحكموا كتاب الله فقط! فها هو كتاب الله نفسه يعترضون عليه وعلى حد من حدوده، ويتأولون المعاني وأن القطع ليس القطع المعروف! ومن أين لهم هذا الفهم أو هذه الفكرة التي خفيت عن الجميع من قبل طوال مئات السنين حتى قاموا هم باكتشافها؟! وهذا إن دل يدل على أنهم أصحاب هوى وليس أكثر، ويريدون دينًا وفق هواهم وليس كما يزعمون يريدون القرآن دينًا، ونسأل الله أن يعافينا من اتباع الهوى.

ولأني آثرت الاختصار، ولأن شرح الأحاديث يحتاج لكتاب خاص وليس فقط بعض الصفحات، سأحاول أن نستعرض بعض الأحاديث التي يكثر الكلام حولها وأنها خالفت كتاب الله عز وجل ونبين أين مواضع الإشكال فيها.

الحديث الأول

«لا وصية لوارث»

نبدأ بتخريج الحديث:

أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢١٢٠) وقال حسن صحيح، وأبو داود (٣٥٦٥)، وأحمد (٢٢٢٩٤) باختلاف يسير، وابن ماجه (٢٧١٣) مختصرًا.

الإشكال في الحديث:

يتعارض ظاهريًا مع آية الوصية في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة: ١٨٠].

توضيح الإشكال:

الوصية لم تذكر في هذه الآية فقط بل ذُكرت أيضًا في آيات المواريث، وذكر أن هناك جهتين لهما وصية: الأولى وصية من الله، والثانية وصية من المتوفى، وإذا استعرضنا أول آيتين من آيات المواريث في سورة النساء قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن

ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١١-١٤].

فالله عز وجل افتتح تقسيمه للمواريث التي فرضها بنفسه بوصفه لهذه القسمة بأنها {وصية من الله} فقال تعالى: {يوصيكم الله} في بداية الآيات، واختتم الآية الثانية بالتأكيد على هذا المعنى فقال تعالى: {وصية من الله}، وزاد وصفه لهذه القسمة فقال: أنها {حدود الله}، وتوعد من يعصي الله ورسوله ويتعدى حدوده بالخلود في النار عياذًا بالله، كل هذا يوضح ماذا؟

– بالتأكيد حتى يبين أهمية العمل بتقسيمة المواريث التي فرضها الله عز وجل بنفسه، وجعلها من حدوده، وتوعد من يتعدى حدوده بالخلود في النار والعذاب المهين؛ لذا اسمع لقوله تعالى في آيات الوصية في سورة البقرة: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨٢﴾﴾ [البقرة: ١٨٢]، هنا بين الله عز وجل أن الموصي قد يكون في وصيته {جنفًا أو إثمًا} وأمر من لاحظ ذلك بإصلاح الوصية دون أن يكون على إصلاحه أي إثم.

ولابد أن نسأل: ما المعيار الذي نحدد به أن وصية المتوفي اكتسبت إثمًا؟

– بالتأكيد الإثم يكون لو تعدى حدود الله أو خالفها، فالله عز وجل حدّ حدوده حتى لا يتجاوزها أحد، والإثم بتعدي هذه الحدود؛ لذا إن أوصى المتوفى في وصيته بحرمان أحد الورثة بسبب غضبه عليه، أو أوصى لأحد الورثة بنصيب آخر أليس هذا إثمًا وتعدٍ على حدود الله، ويوجب العقاب كما ذكرت الآيات؟

– بالتأكيد هو تعدى على حدود الله، وعطل شرع الله وفرضه الذي فرضه لهذا

الوارث، بل واعتبر أن رأيه أفضل من تقسيمة الله عز وجل، ونسي أن هذا المال مما خلفه الله عليه كما قال تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ ...﴾ [الحديد: ٧].

لذا المقبل على الموت هو على مشارف أن يغادر الحياة الدنيا، وتنتهي خلافته على ماله، وينتقل هذا المال لغيره كما يريد الله عز وجل أن ينتقل، أي أن الحديث جاء ضابطًا مانعًا من تعدي حدود الله عز وجل التي فرضها بنفسه، فالوارث أخذ حقه من (وصية الله) التي أوصاها له بنفسه وانتهى حقه، وأي نصيب آخر اتهام لله عز وجل أنه لم يوصِ بقسمة عادلة وحاشاه؛ ولهذا جاء في نص الحديث: «إِنَّ اللَّهَ قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، ألا لا وصيَّةَ لوارِثٍ».

ولو أوصى المتوفى بنصيب أعلى لأحد الورثة هذا أيضًا يستوجب حرمان بقية الورثة من جزء من نصيبهم الشرعي، وتعدٍ على حدود الله الذي حدّها وفرضها بنفسه عز وجل؛ لهذا الوصية المذكورة أنها تنفذ هي التي لا تتعدى حدود الله، ولا توجب عقابه، وهي خارج الورثة الذين فرض الله عز وجل لهم نصيبهم في آيات المواريث، وأما لو تعارضت وصية المتوفى مع وصية الله فوصية الله تُقدم بالتأكيد فهو العليم الحكيم ذو العلم المطلق والحكمة الكاملة.

والله تعالى أعلى وأعلم.

الحديث الثاني

«خلق الله آدم على صورته»

تخريج الحديث:

أخرجه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١) بلفظ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ علَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِراعًا»، وأخرج ابن خزيمة في "التوحيد" (٨٥/١)، والطبراني (٤٣٠/١٢) (١٣٥٨٠)، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (٦٤٠) باختلاف يسير حديثًا آخر بلفظ: «لا تُقبّحوا الوجهَ؛ فإنَّ اللهَ خلق آدمَ على صورتِه».

الإشكال في الحديث:

يتعارض ظاهريًا مع قوله تعالى: ﴿... لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١].

توضيح الإشكال:

للعلماء في التعامل مع هذه الأحاديث مسلكان:

الأول: وهو ما ذهب إليه ابن خزيمة: أن هيئته أو صورته يُقصد بها آدم نفسه، أي أن آدم خلق على هذه الصورة البشرية بطول ستون ذراعًا، والنهي عن تقبيح الوجه؛ لأن الله عز وجل خلق نفس الوجه لآدم عليه السلام وكرمه وأمر ملائكته للسجود لما خلق بيديه سبحانه، قال ابن خزيمة في كتابه "التوحيد" طبعة مكتبة الكليات الأزهرية (ص٣٧): «قال أبو بكر (يعني بذلك نفسه): توهم بعض من لم يتحر العلم أن قوله: على صورته يريد صورة الرحمن، عز ربنا وجل عن أن يكون هذا معنى الخبر، بل معنى قوله: خلق آدم على صورته، الهاء في هذا الموضع كناية عن اسم المضروب والمشتوم، أراد ﷺ أن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب الذي أمر الضارب باجتناب وجهه بالضرب، والذي قبح وجهه فزجره ﷺ أن يقول: ووجه من أشبه وجهك، لأن وجه آدم شبيه وجه بنيه، فإذا قال الشاتم

لبعض بني آدم: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك كان مقبحًا وجه آدم صلوات الله وسلامه عليه الذي وجوه بنيه شبيهة بوجه أبيهم، فتفهموا رحمكم الله معنى الخبر، لا تغلطوا ولا تغالطوا فتضلوا عن سواء السبيل، وتحملوا على القول بالتشبيه الذي هو ضلال».

الثاني: وهو أن هذه أحاديث أسماء وصفات لله عز وجل، كآيات الأسماء والصفات لها تعامل خاص فلا نخوض فيها بتشبيه ولا تمثيل عملًا بقوله تعالى: {ليس كمثله شيء}، ويكون بهذا التعامل مع الحديث هو أن الحديث يثبت لله هيئة كهيئة آدم، هذه الهيئة لها وجه ويدين وعين، وتسمع وتبصر وتتكلم كما أثبت الله عز وجل لنفسه في كتابه دون الخوض في كيفية أو تشبيه فقال تعالى مخبرًا عن صفاته في كتابه العزيز: ﴿... وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم: ٣٩]، ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص: ٧٥]، ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [الطور: ٤٨]، ﴿... وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤].

قال ابن قتيبة رحمه الله في تأويل مختلف الحديث (ص٢٢١): «الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع والعين، وإنما وقع الإلف لتلك لمجيئها في القرآن، ووقعت الوحشة من هذه لأنها لم تأتِ في القرآن، ونحن نؤمن بالجميع، ولا نقول في شيء منه بكيفية ولا حد».

لذا فنحن نؤمن أن لله ذاتًا وصفاتٍ تليق به عز وجل، وليست كصفات مخلوقاته، ولا نخوض فيها بتشبيه أو مثال ونقول كما أخبر عن نفسه سبحانه: {ليس كمثله شيء}.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم.

الحديث الثالث

«لا يسمع بي أحد ثم يموت ولا يؤمن بي إلا كان من أصحاب النار»

تخريج الحديث:

أخرجه الإمام مسلم في صحيحه حديث (رقم 153).

نص الحديث:

«والذي نفْسُ محمدٍ بيدِهِ، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمةِ، لا يهودِيٌّ، ولا نصرانِيٌّ، ثُمَّ يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ به، إلَّا كان من أصحابِ النارِ».

الإشكال في الحديث:

يتعارض ظاهريًا مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢].

توضيح الإشكال:

هذا أمر عليه إجماع المسلمين لورود الآيات العديدة التي تؤكد عليه في كتاب الله، وسنتناول سويًا إن شاء الله الأدلة التي تبين هذا الأمر:

أولًا: الأدلة على أن الله عز وجل جعل الدين الذي ارتضاه وجاء به سائر الأنبياء هو الإسلام:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

* وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩].

* وقال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢﴾ [يونس: ٧١-٧٢].

* وقال على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨].

* ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣١].

* وقال عن إسحاق ويعقوب وأبنائه: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: ١٣٢-١٣٣].

* وقال حاكيًا عن حواري عيسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران: ٥٢].

* وقال على لسان يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: ١٠١].

* وقال على لسان ملكة سبأ: ﴿... قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤﴾ [النمل: ٤٤].

ثانيًا: أدلة على أن الله عز وجل أمر بالإيمان بجميع الأنبياء، وهذا في كل رسالاته:

* قال تعالى:﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٨٢ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [آل عمران: ٨١-٨٣].

* وقال أيضًا عن بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾ [المائدة: ١٢-١٣].

ثالثًا: أدلة على أن الإيمان بجميع الرسل وعدم التفريق بينهم شرط لقبول العمل:

* فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢].

* وقال أيضًا: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران: ٨٤-٨٥].

رابعًا: أدلة على أن أهل الكتاب لديهم مواصفات الرسول ﷺ في كتبهم، بل ووصف الحق عز وجل معرفتهم لرسول الله ﷺ، وأنه مرسل من عند الله كمعرفة (أبنائهم)، ولو قرأوا كتبهم جيدًا سيؤمنون به، وأن هناك فريقًا منهم يكتم هذه المواصفات، وحذرهم أن الكفر بالرسول ﷺ يعد خسرانًا.

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ [البقرة: ١٢١].

* وقال أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة: ١٤٦].

* وقال أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾ [الأنعام: ٢٠].

يبقى السؤال: ما المراد من الآية؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة: ٦٢].

والجواب:

المقصود بهم من آمنوا بجميع الرسل حتى زمنهم، ولم يسمعوا بعد برسالة الرسول ﷺ فقابلوا ربهم عز وجل مؤمنين بجميع الرسل الذين سمعوا عنهم، وهكذا هم دخلوا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ

سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾ [النساء: ١٥٢]، فهو هنا ذكر من الذين سيؤتيهم أجورهم بأنهم آمنوا بجميع الرسل، أو من سمع بالرسول ﷺ وآمن به، وهؤلاء من ذكرهم الله عز وجل أنهم هم الذين سيؤتيهم أجورهم منهم، كما قال في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٦٢﴾ [النساء: ١٦٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٥٤﴾ [القصص: ٥٢-٥٤].

وهذه الآيات بينت من منهم الذي سوف يؤتيه الله أجره، ووضعت شرطًا وهو الإيمان بالله وما أنزل إلى رسوله ﷺ كما آمنوا بما أنزل من قبله؛ ولذلك حين نتحدث عن آية وجب علينا ألا نغفل عن باقي الآيات التي تشرحها وتبينها أو وردت في نفس الموضوع حتى تكون الصورة مكتملة لدينا ونفهم مراد الله عز وجل جيدًا.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم.

الحديث الرابع

«لا يدخل الجنة أحد بعمله»

تخريج الحديث:

أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) بلفظ: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ. قالوا: ولا أَنْتَ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: لا، ولا أنا، إلَّا أنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بفَضْلٍ ورَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وقارِبُوا، ولا يَتَمَنَّيَنَّ أحَدُكُمُ المَوْتَ: إمَّا مُحْسِنًا، فَلَعَلَّهُ أنْ يَزْدادَ خَيْرًا، وإمَّا مُسِيئًا، فَلَعَلَّهُ أنْ يَسْتَعْتِبَ».

الإشكال في الحديث:

يتعارض ظاهريًا مع قوله تعالى: ﴿... ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ٣٢﴾ [النحل: ٣٢].

توضيح الإشكال:

أولًا: لن يملك أحد منا ثمنًا للجنة، ولا يوجد عمل ثمن للجنة، وهذه حقيقة مهما عملنا وقدمنا من أعمال ولو لألف سنة فهذه الأعمال ليست ثمنًا للجنة؛ ولذلك اسمع لوصف الله عز وجل حين أخبر أنه سيجازي عن الأعمال الصالحة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ ...﴾ [النساء: ١٧٣]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠]، وقال أيضًا: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ٣٨﴾ [النور: ٣٨].

فالله عز وجل أخبرنا أنه سبحانه لن يجازي فقط على الأعمال ولكن يزيد من فضله، وبالطبع لولا هذه الزيادة من فضل الله لما استحق أحد منا الجنة.

ثانيًا: الله عز وجل أخبر في مواضع في كتاب الله أن دخول الجنة برحمة الله، نذكر منها:

١- أصحاب الأعراف:

وأصحاب الأعراف رجال وقفوا بين الجنة والنار، وجاء وصفهم تفصيليًا في سورة الأعراف التي سميت عليهم، وبينت الآيات وصفًا لمشاعرهم وطمعهم في دخول الجنة، وهم لا يستطيعون دخولها وإذا نظروا للنار خافوا أن يكون مصيرهم إليها، ودعوا الله ألا يكونوا من أهلها، ثم ينتهي مصيرهم إلى الجنة (برحمة الله)، فقال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٦-٤٩].

٢- في سورة فاطر يعترف أهل الجنة لله عز وجل بفضله عليهم بإدخالهم الجنة: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٣-٣٥].

ثالثًا: رحمة الله هي الأساس والأصل في كل شيء:

١- هو من أرسل لنا رسله ليبين لنا الحق وما يرضيه سبحانه وما يغضبه، قال تعالى:﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ

مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴿٢١٣﴾ [البقرة: ٢١٣].

٢- هو الذي وفقنا للإيمان به، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴿١٧﴾ [الحجرات: ١٧].

وقال أيضًا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٢-٤٣].

٣- سبحانه الغني عنا وعن عبادتنا، ومع هذا يقبل القليل ويعفو عن الكثير، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴿٧﴾﴾ [العنكبوت: ٥-٧].

4- سبحانه لم يعجل لنا بالعقوبة وأمهلنا، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴿٥٨﴾﴾ [الكهف: ٥٨].

5- سبحانه لم يكلفنا بما لا نطيق، بالرغم من أن الجنة تستحق أن نفني أعمارنا سعيًا للوصول لها، قال تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المؤمنون: ٦٢].

6- سبحانه نعمه علينا لا تعد ولا تحصى سبحانه، ولا نستطيع حتى شكر نعمة واحدة من نعمه، ولا يزال ينعم في الدنيا قبل الآخرة، وبعد ذلك نقول لا ندخل الجنة

برحمته! حقًا {إن الإنسان لظلوم كفار} كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٤].

رابعًا: الحديث لا يُفهم منه النهي عن العمل كما يدعي البعض والركون إلى رحمة الله، بل الحديث تكملته الدعوة إلى العمل: «فَسَدِّدُوا وقارِبُوا، ولا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ: إمَّا مُحْسِنًا، فَلَعَلَّهُ أنْ يَزْدادَ خَيْرًا، وإمَّا مُسِيئًا، فَلَعَلَّهُ أنْ يَسْتَعْتِبَ»، فالرسول ﷺ دعا المحسن إلى الزيادة من إحسانه، والمسيء إلى التوبة وهذه كلها من الأعمال الصالحة.

والكلام يكثر في هذا الأمر، ولكن ختامًا يجب علينا أن نتأدب حين نتكلم عن الله عز وجل {مالكم لا ترجون لله وقارا}، وأن نعرف قدرنا فنحن خلق من خلقه، وسبحانه الغني عنا وعن أعمالنا، وعلينا أن نحذر من محبطات الأعمال، ولعل من أهمها رفع الأصوات فوق صوت النبي ﷺ فكيف بمن يرفع رأيه فوق رأي النبي ﷺ ويظن أن له فهمًا أفضل من فهمه! قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٢﴾ [الحجرات: ٢].

هذا ونعوذ بالله من أمراض القلوب ومحبطات الأعمال، ونسأله سبحانه عفوه ورضوانه وأن يتقبل منا صالح الأعمال، وأن يغفر لنا ذنوبنا ويكفر عنا سيئاتنا فهو ولي ذلك وأهله.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم.

الحديث الخامس

حادثة سحر الرسول ﷺ

تخريج الحديث:

أخرجها البخاري في صحيحه في أحاديث (رقم ٥٧٦٣، ٥٧٦٥، ٥٧٦٦، ٦٠٦٣، ٦٣٩١، ٣٢٧٨)، ومسلم حديث رقم (٤٣/٢١٨٩).

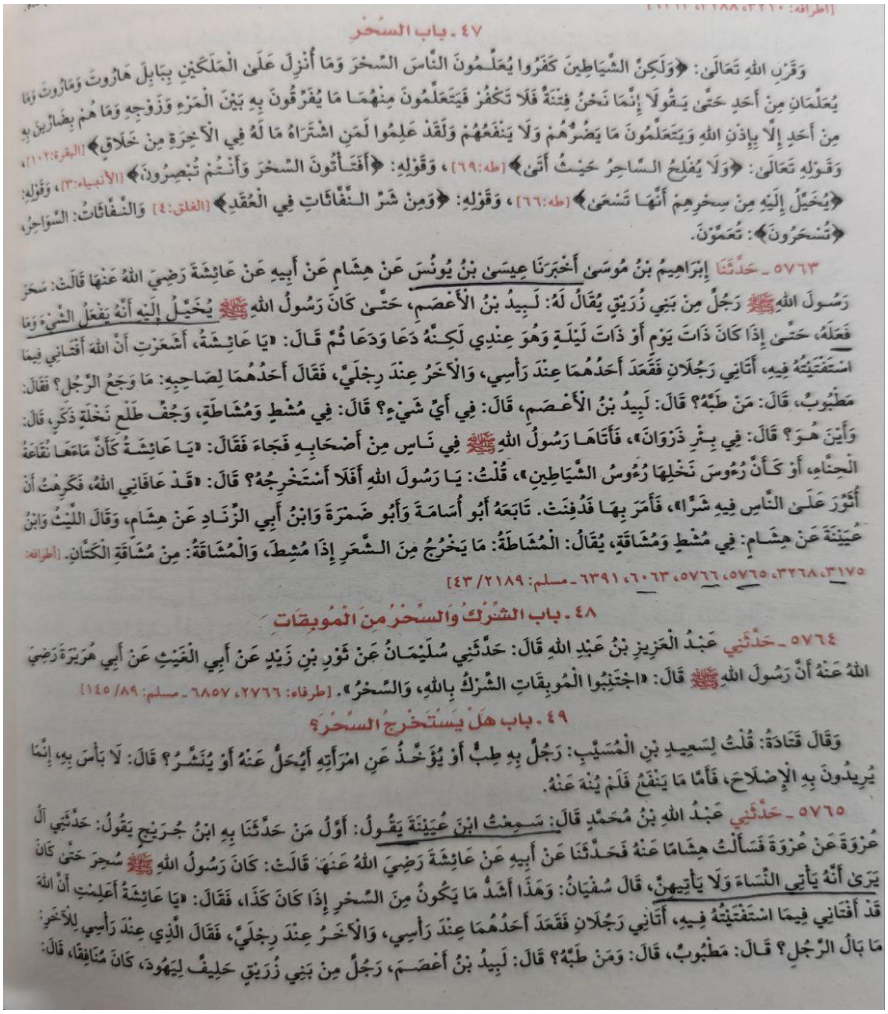

٤٧ ـ باب السِّحْرِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة:١٠٢]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه:٦٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء:٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه:٦٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق:٤] وَالنَّفَّاثَاتُ: السَّوَاحِرُ، ﴿تُسْحَرُونَ﴾: تُعَمَّوْنَ.

٥٧٦٣ ـ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى أَخْبَرَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَحَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ يُقَالُ لَهُ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ عِنْدِي لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا ثُمَّ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَشَعَرْتِ أَنَّ اللهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ، أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، قَالَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَجُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَرٍ، قَالَ: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ»، فَأَتَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَجَاءَ فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ كَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ، أَوْ كَأَنَّ رُءُوسَ نَخْلِهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أَسْتَخْرَجْتَهُ؟ قَالَ: «قَدْ عَافَانِي اللهُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ شَرًّا»، فَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ. تَابَعَهُ أَبُو أُسَامَةَ وَأَبُو ضَمْرَةَ وَابْنُ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ هِشَامٍ، وَقَالَ اللَّيْثُ وَابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ هِشَامٍ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَةٍ، يُقَالُ: الْمُشَاطَةُ: مَا يَخْرُجُ مِنَ الشَّعَرِ إِذَا مُشِطَ، وَالْمُشَاقَةُ: مِنْ مُشَاقَةِ الْكَتَّانِ. [أطرافه: ٣١٧٥، ٣٢٦٨، ٥٧٦٥، ٥٧٦٦، ٦٠٦٣، ٦٣٩١ ـ مسلم: ٢١٨٩/ ٤٣]

٤٨ ـ باب الشِّرْكُ وَالسِّحْرُ مِنَ الْمُوبِقَاتِ

٥٧٦٤ ـ حَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللهِ قَالَ: حَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ عَنْ ثَوْرِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ أَبِي الْغَيْثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا الْمُوبِقَاتِ الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ». [طرفاه: ٢٧٦٦، ٦٨٥٧ ـ مسلم: ٨٩/ ١٤٥]

٤٩ ـ باب هَلْ يَسْتَخْرِجُ السِّحْرَ؟

وَقَالَ قَتَادَةُ: قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَوْ يُؤْخَذُ عَنِ امْرَأَتِهِ أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنَشَّرُ؟ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ.

٥٧٦٥ ـ حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُيَيْنَةَ يَقُولُ: أَوَّلُ مَنْ حَدَّثَنَا بِهِ ابْنُ جُرَيْجٍ يَقُولُ: حَدَّثَنِي أَلَ عُرْوَةَ عَنْ عُرْوَةَ فَسَأَلْتُ هِشَامًا عَنْهُ فَحَدَّثَنَا عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سُحِرَ حَتَّى كَانَ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلَا يَأْتِيهِنَّ، قَالَ سُفْيَانُ: وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السِّحْرِ إِذَا كَانَ كَذَا، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ أَعَلِمْتِ أَنَّ اللهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ، أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخَرِ: مَا بَالُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ أَعْصَمَ، رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ حَلِيفٌ لِيَهُودَ، كَانَ مُنَافِقًا، قَالَ:

الإشكال في الحديث:

يتعارض مع قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٤٧﴾ [الإسراء: ٤٧].

توضيح الإشكال:

أولًا: الآية الكريمة كانت تنفي أن القرآن الكريم من أثر السحر على الرسول ﷺ، وهذا من سياق الآيات قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ٤٦ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٤٧ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٤٨﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٨].

لذا فالمقصود من نفي السحر هو نفي لقول الظالمين أن القرآن هو من أثر السحر، فالسحر ومس الشيطان يجعلان الإنسان يتقول بكلام ككلام المجانين،كما ورد في آيات أخرى تشبيه الكافرين للقرآن بأنه من أثر الجنون على الرسول ﷺ فقال تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ٦٦ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ٦٧ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٦٩ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٠﴾ [المؤمنون: ٦٦-٧٠].

ثانيًا: الضر لا يكون إلا بإذن الله مهما تعددت أسبابه، والله عز وجل أخبر رسوله ﷺ أنّه قد يمسه بضر كما أخبره أنه يعصمه من الناس، قال تعالى: ﴿... وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ...﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقال أيضًا: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨﴾ [الأنعام: ١٧-١٨].

وقال أيضًا: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال أيضًا: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾ [الأنبياء: ٣٥].

لهذا نحن لا إشكال لدينا حين نقرأ في سير الأنبياء والمرسلين حجم الضرر الذي كان يصيبهم، بل ووصل الأمر أن قُتل بعضهم كما أخبرنا عز وجل عن بني إسرائيل: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢﴾ [آل عمران: ١١٢]، وكل هذا يكشف لنا قدر ما تحمّل الأنبياء من أذى في سبيل الدعوة إلى الله، وكيف أنهم لم يسلموا من الابتلاء أيضًا، وهذا مما يتصبر به المرء على البلاء في هذه الدنيا.

ثالثًا: الله عز وجل أرسل أنبياءه وأخبرهم أنه سيكون لهم أعداء سيمكرون لهم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيّٖ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال أيضًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيّٖ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ٣١﴾ [الفرقان: ٣١].

وقال أيضًا: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠].

والله عز وجل لو شاء لترك الأنبياء يبلغون رسالتهم دون أي عداء أو إساءة من أحد، ولكن هذه من حكمة الله وقضائه أن يبتلي الأنبياء ويبتلي بهم.

رابعًا: أنبياء الله قد يمسهم الضر ولو من الشياطين، وهذا لا يتنافى مع عصمتهم، فقد يقدر الله عز وجل لحكمة عنده أن يمس بعض أنبيائه ضرر من بعض الشياطين إلى فترة معينة ثم يأذن بزوال هذا الضرر، قال تعالى على لسان أيوب عليه السلام: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١﴾ [ص: ٤١].

وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾ [ص: ٣٤-٣٥].

وذكر ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «يقول تعالى: {ولقد فتنا سليمان} أي: اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة، {وألقينا على كرسيه جسدا} قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم: يعني شيطانًا، {ثم أناب} أي: رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته».

وقال عز وجل عن نبينا ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ

ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨﴾ [الأنعام: ٦٨]، والنسيان هنا قد يكون لأنه يشغله بأمور، ولكن في النهاية يظل هذا من مكر الشيطان برسول الله ﷺ، فالشيطان لا يريد لرسول الله ﷺ أن يتم مهمته وأن يدعو إلى الله، ويفعل هذا مع كل أنبياء الله ومع كل داع إلى الله عز وجل، وهذه الآية ترد على من يقول: وهل كان يغفل الرسول ﷺ عن الرقية والمعوذتين وما شابه من الرقية الشرعية؟ فهذه الآية بينت أن الرسول ﷺ قد يكون (نسي) وانشغل عنهم في هذا اليوم، وهذا مما قدره الله عليه لحكمة هو سبحانه اقتضاها.

خامسًا: تأثير السحر كان محدودًا (يخيل إليه)، وقد وقع مثله لنبي الله موسى، فالبخاري روى الحديث من أكثر من طريق منها ما ذكر «أنه كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله»، ومنها ما وضح ما هو هذا الفعل فقال: «أنه كان يأتي زوجاته وما يأتيهن»، وكذلك نفس الحديث ذكر أن الرسول ﷺ كان واعيًا، ومن وعيه أنه هو من علم بمشكلته وهو من دعا الله أن يذهبه عنه، والعادة أن من يؤثر السحر على وعيه لا يعرف بمشكلته، والناس هم من يخبروه أن به خطب أو هم من يسعون لعلاجه.

وهذا التخيل ذكر مثله حدث لنبي الله موسى عليه السلام أمام سحرة فرعون لدرجة أوقعت في نفسه عليه السلام الخوف فقال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨﴾ [طه: ٦٥-٦٨].

خلاصة الكلام تبين لنا أن المقصود باستنكار المشركين من قولهم: {رجلًا مسحورًا} هو أنه موجه للقرآن كنوع من الهذيان، الذي يصيب مَن به مسٌ مِن الشيطان، وهذا حتى يصدوا الناس عنه، وأن الله عز وجل أخبر رسول أنه قد يمسه الضر كما أخبره أنه يعصمه من الناس، ولا تعارض بين الأمرين، فالضر مس كل الأنبياء، والابتلاء هو مما قدره الله على الجميع في هذه الدنيا، بل إن الضر من الشياطين قد مس الأنبياء من قبل كأيوب وسليمان عليهما السلام، وما مس رسولنا ﷺ نوع من هذا الضر، ولم يؤثر على وعيه ولا على عصمة الوحي والدين، ولله الحمد اكتمل وتمت نعمة الله على هذه الأمة.

* هذا والله تعالى أعلى وأعلم *

أمثلة لأحاديث ضعاف لا تصلح للاحتجاج

أولًا: قد يتبادر للذهن السؤال: لم توجد في كتب الأحاديث أحاديث ضعاف؟

والجواب: هو أن هذه الروايات والأحاديث كانت موجودة ومنتشرة بالفعل، ولم يخترعها مصنفو كتب الأحاديث، وإنما هم تتبعوها في محاولة للوقوف على أصل هذه الروايات، وهل يصح نسبتها لقائلها، وسجلوا ما توصلوا إليه من الرواية ومن يرويها في كتبهم حتى لا يأتي أحد ويركب مثلًا أسانيد لثقات ويكذب على الناس، وهناك أحاديث لم يقفوا على صحتها تركوها لأهل الحديث ممن يأتي بعدهم ليتتبعوها ويرون هل الأحاديث صالحة للاحتجاج أم لا تصح.

نبدأ بمحاولة انتحار النبي ﷺ

تخريج الحديث:

أخرج البخاري في صحيحه الجامع في أكثر من موضع حديث بدء الوحي، ولكن زاد في كتاب التعبير باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي من الرؤيا الصالحة، حديث (رقم ٦٩٨٢) زاد في نهاية الحديث: «وفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً حتَّى حَزِنَ النَّبيُّ ﷺ –فِيما بَلَغَنَا– حُزْنًا غَدَا منه مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِن رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الجِبَالِ، فَكُلَّما أوْفَى بذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ منه نَفْسَهُ، تَبَدَّى له جِبْرِيلُ، فَقالَ: يا مُحَمَّدُ، إنَّكَ رَسولُ اللَّهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذلكَ جَأْشُهُ، وتَقِرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عليه فَتْرَةُ الوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذلكَ، فَإِذَا أوْفَى بذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى له جِبْرِيلُ فَقالَ له مِثْلَ ذلكَ».

وهذه الزيادة من بلاغات الزهري أوردها الزهري مرسلة، وإذا فتحت صحيح البخاري (الطبعة الثانية لدار الفجر للتراث، والتي من ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)

ستجده كتب بجوار الحديث أن أطرافه أحاديث رقم (٣- ٣٣٩٢- ٤٩٥٣- ٤٩٥٥- ٤٩٥٦- ٤٩٥٧، ومسلم رقم ١٦٠- ٢٥٢)، والمواضع الأخرى ليست بها الزيادة المرسلة من الزهري.

وبهذا خلاصة الكلام:

١- محاولة الانتحار المزعومة هذه رواية مرسلة زادها الزهري، ولم تثبت بسند متصل إلى أحد من الصحابة رضوان الله عليهم، ولهذا فهي لم يجتمع فيها شروط صحة الحديث.

٢- البخاري رحمه الله لم يرددها كثيرًا كما يدعي البعض، هو فقط أوردها حين ذكر الحديث مطولًا في باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي؛ ليعطي حكمه على هذه الزيادة أنها (لا تصح)، ولم يقف فيها على إسناد متصل؛ ولهذا لم يوردها مع باقي المواضع التي ذكر فيها الإسناد متصلًا أو كرر من ذكر واقعة التردي من الجبال.

* هذا والله أعلى وأعلم *

٩١. كتاب التعبير

١. باب أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ

٦٩٨٢ ـ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءً فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ ـ وَهُوَ التَّعَبُّدُ ـ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فِيهِ فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١ ـ ٥]» فَرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ فَقَالَ: «يَا خَدِيجَةُ مَا لِي؟»، وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ وَقَالَ: «قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، فَقَالَتْ لَهُ: كَلَّا أَبْشِرْ، فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ ـ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخُو أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ فَيَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ ـ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيِ ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ وَرَقَةُ: ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ مَا رَأَى فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا أَكُونُ حَيًّا، حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟»، فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا بَلَغَنَا حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ، تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ وَتَقِرُّ نَفْسُهُ فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ. [أطرافه: ٣، ٣٣٩٢، ٤٩٥٣، ٤٩٥٥، ٤٩٥٦، ٤٩٥٧ ـ مسلم: ١٦٠/ ٢٥٢]

الحديث الثاني

أطيط العرش

تخريج الحديث:

أطيط العرش، جاء في حديث الأوعال الذي رواه أبو داود (٤٧٢٦) وغيره، عن محمد بن إسحاق، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: «أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جُهِدَتِ الْأَنْفُسُ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكَتْ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللَّهَ لَنَا فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ وَنَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟) وَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: (وَيْحَكَ إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللَّهُ، إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا) وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ (وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ)» قَالَ ابْنُ بَشَّارٍ فِي حَدِيثِهِ: «إِنَّ اللَّهَ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ» وَسَاقَ الْحَدِيثَ.

هو حديث ضعيف، ضعفه الألباني وغيره.

وأخرج عبد الله بن أحمد في "السنة" (٥٨٥) عن عبد الله بن خليفة، عن عمر رضي الله عنه قال: «إذا جلس الرب على الكرسي، سمع له أطيط كأطيط الرحل الجديد».

وجاء أيضًا في حديث عبد الله بن خليفة قال: «أتت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة، فعظم الرب –تعالى ذكره–، ثم قال: إن كرسيه وسع السموات والأرض، وإنه ليقعد عليه، فما يفضل منه مقدار أربع أصابع، ثم قال بأصابعه فجمعها: وإن له أطيطًا كأطيط الرحل الجديد إذا ركب من ثقله».

أخرجه ابن جرير في "تفسيره": (١/١١١)، والدارمي في "الرد على بشر المريسي" (ص٤٧)، وأحمد في "السنة": (ص١٧)، كلهم من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الله بن خليفة مرسلًا بنحوه.

وقد روى الحديث مرفوعًا وموقوفًا.

وقد طعن بعض العلماء في هذا الحديث لاضطراب في السند والمتن، قال ابن كثير: «ثم منهم من يرويه عن عمر موقوفًا، ومنهم من يرويه عن عمر مرسلًا، ومنهم من يزيد في متنه زيادة غريبة، ومنهم من يحذفها» انتهى من "تفسير ابن كثير" (1/310).

وعبد الله بن خليفة الذي عليه مدار الحديث لم يوثقه إلا ابن حبان، وقال فيه الذهبي: لا يكاد يعرف؛ ولهذا فهو حديث ضعيف أيضًا.

قال الذهبي في "العلو" (ص٤٤-٤٥): «هذا حديث غريب جدًا فرد، وابن إسحاق حجة في المغازي إذا أسند، وله مناكير وعجائب؛ فالله أعلم أقال النبي ﷺ هذا أم لا؟ والله عز وجل فليس كمثله شيء جل جلاله، وتقدست أسماؤه، ولا إله غيره، الأطيط الواقع بذات العرش، من جنس الأطيط الحاصل في الرحل؛ فذاك صفة للرحل وللعرش، ومعاذ الله أن نعده صفة لله عز وجل، ثم لفظ الأطيط لم يأت به نص ثابت» انتهى.

[تم الاستفادة في هذا الحديث من موقع إسلام وجواب سؤال (رقم 426117)]

الحديث الثالث

حديث الداجن

الحديث مدار جميع طرقه وألفاظه على الإسناد الآتي: عبد الله بن أبي بكر بن حزم، عن عمرة بنت عبد الرحمن، عن عائشة رضي الله عنها من كلامها موقوفًا عليها، وقد أخذه عن عبد الله بن أبي بكر جماعة من الرواة، وقد كانت روايتهم على الأوجه الآتية:

الوجه الأول: يرويه يحيى بن سعيد الأنصاري، ولفظه: «نَزَلَ فِي الْقُرْآنِ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ، ثُمَّ نَزَلَ أيضًا خَمْسٌ مَعْلُومَاتٌ» أخرجه الإمام مسلم في "صحيحه" (رقم/١٤٥٢) وغيره، ونلاحظ في هذه الرواية أنها لا تشتمل على شيء من قصة ماعز أو داجن تأكل شيئًا من صحف القرآن الكريم.

الوجه الثاني: يرويه الإمام مالك رحمه الله، ولفظه: « كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ، فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ»، رواه مالك في "الموطأ" (كتاب الرضاع/ حديث رقم١٧)، ومن طريقه الإمام مسلم (١٤٥٢) وغيره، ونلاحظ ههنا أن رواية الإمام مالك عن عبد الله بن أبي بكر لا تشتمل أيضًا على شيء من قصة ماعز أو داجن تأكل شيئا من المصحف، وإنما زاد فيه الجملة الأخيرة: «فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ».

الوجه الثالث: يرويه محمد بن إسحاق، ولفظه: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ آيَةُ الرَّجْمِ، وَرَضَعَاتُ الْكَبِيرِ عَشْرٌ، فَكَانَتْ فِي وَرَقَةٍ تَحْتَ سَرِيرٍ فِي بَيْتِي، فَلَمَّا اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ تَشَاغَلْنَا بِأَمْرِهِ، وَدَخَلَتْ دُوَيْبَةٌ لَنَا فَأَكَلَتْهَا»، رواه الإمام أحمد في "المسند" (٣٤٣/٤٣)، وابن ماجة في "السنن" (رقم/١٩٤٤) ولفظه: «فَلَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَشَاغَلْنَا بِمَوْتِهِ دَخَلَ دَاجِنٌ فَأَكَلَهَا»، وهو يشتمل على لفظ زائد وغريب عما

رواه الإمامان الكبيران يحيى بن سعيد الأنصاري ومالك بن أنس رحمهما الله، ففي الحديث أن داجنًا –وهي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم– دخلت فأكلت الصحيفة التي تشتمل على آية الرجم وآية رضعات الكبير.

وهذه المخالفة كافية لدى المحدثين في الحكم على لفظ محمد بن إسحاق بالضعف والرد والشذوذ، فالحديث الشاذ عندهم هو الحديث الذي يخالف فيه الراوي الثقة ما رواه الثقات الأحفظ منه أو الأكثر عددًا، وهي قاعدة عقلية سليمة، إذ كيف ينفرد راوٍ بألفاظ للحديث نفسه الذي يرويه آخرون من رواته وهم أكثر عددًا، أو أقوى حفظًا وأعلى مرتبة، أين كانوا عن تلك الزيادة أو المخالفة؟ وهل من سبيل إلا نحو القاعدة لمعرفة مخالفات الرواة وغرائب حديثهم ومروياتهم، وإذا لم يكن كذلك فكيف سيقنعنا ذلك المجادل بأن محمد بن إسحاق حفظ من حديث عائشة ما نسيه كل من: يحيى بن سعيد الأنصاري، ومالك بن أنس، وهما أئمة هذا الشأن وأعلامه الكبار، حتى قال سفيان الثوري رحمه الله: «كان يحيى بن سعيد الأنصارى أجل عند أهل المدينة من الزهري، وعده علي بن المديني أحد أصحاب صحة الحديث وثقاته، ومن ليس فى النفس من حديثهم شيء، وقال فيه أحمد بن حنبل: أثبت الناس، وقال وهيب: قدمت المدينة فلم أر أحدًا إلا وأنت تعرف وتنكر غير مالك ويحيى بن سعيد». انظر: "تهذيب التهذيب" (٢٢٣/١١).

فكيف إذا علمنا أن محمد بن إسحاق منتَقَدٌ لدى بعض علماء الحديث، وقد عهدت عليه بعض الأخطاء في مروياته، وعهد عليه المخالفة لرواية الأئمة الثقات، فمثله لا تقبل مخالفته ولا تفرده بالغرائب عن غيره من الحفاظ الثقات.

قال حنبل بن إسحاق: سمعت أبا عبد الله يقول: ابن إسحاق ليس بحجة. وقال عبد الله بن أحمد: لم يكن –يعني أحمد بن حنبل– يحتج به فى السنن. وقال أيوب بن إسحاق: سألت أحمد بن حنبل، فقلت: يا أبا عبد الله، ابن إسحاق

إذا تفرد بحديث تقبله؟ قال: لا، والله إني رأيته يحدث عن جماعة بالحديث الواحد، ولا يفصل كلام ذا من ذا.

وضعفه يحيى بن معين في إحدى الروايات عنه، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال الدارقطني: اختلف الأئمة فيه، وليس بحجة، إنما يعتبر به. انظر: "تهذيب التهذيب" (٤٥/٩).

ومما يزيد الأمر وضوحًا أيضًا أن القاسم بن محمد تابع عبد الله بن أبي بكر في رواية الحديث من غير زيادة محمد بن إسحاق، فروى الطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (٤٨٦/١١) قال: حدثنا محمد بن خزيمة، حدثنا الحجاج بن منهال، قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن القاسم بن محمد، عن عمرة، أن عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ سَقَطَ: أَنْ لَا يُحَرِّمُ مِنَ الرَّضَاعِ إِلَّا عَشْرُ رَضَعَاتٍ، ثُمَّ نَزَلَ بَعْدُ: أَوْ خَمْسُ رَضَعَاتٍ».

فالخلاصة أن قصة الشاة التي أكلت صحيفة القرآن الكريم في بيت عائشة رضي الله عنها قصة ضعيفة لا تثبت، يقول ابن قتيبة الدينوري رحمه الله: «ألفاظ حديث مالك خلاف ألفاظ حديث محمد بن إسحاق، ومالك أثبت عند أصحاب الحديث من محمد بن إسحاق» انتهى من "تأويل مختلف الحديث" (ص/٤٤٣).

وقال محققو مسند الإمام أحمد: «إسناده ضعيف لتفرد ابن إسحاق –وهو محمد– وفي متنه نكارة». انتهى من "طبعة مؤسسة الرسالة" (٣٤٣/٤٣).

ويقول الألوسي رحمه الله: «وأما كون الزيادة كانت في صحيفة عند عائشة فأكلها الداجن، فمن وضع الملاحدة وكذبهم في أن ذلك ضاع بأكل الداجن من غير نسخ، كذا في الكشاف» انتهى من "روح المعاني" (١٤٠/١١).

ويقول ابن حزم رحمه الله: «صح نسخ لفظها، وبقيت الصحيفة التي كتبت فيها –كما قالت عائشة رضي الله عنها– فأكلها الداجن، ولا حاجة بأحد إليها، وهكذا القول في آية الرضاعة ولا فرق، وبرهان هذا: أنهم قد حفظوها كما أوردنا، فلو

كانت مثبتة في القرآن لما منع أكل الداجن للصحيفة من إثباتها في القرآن من حفظهم، فبيقين ندري أنه لا يختلف مسلمان في أن الله تعالى افترض التبليغ على رسوله ﷺ، وأنه عليه الصلاة والسلام قد بلغ كما أمر ... فصح أن الآيات التي ذهبت لو أمر رسول الله ﷺ بتبليغها لبلغها، ولو بلغها لحفظت، ولو حفظت ما ضرها موته، كما لم يضر موته عليه السلام كل ما بلغ فقط من القرآن». انتهى من "المحلى" (١٢/١٧٧).

ويقول الباقلاني رحمه الله: «وليس على جديدِ الأرض أجهلُ ممن يظُنُ أن الرسولَ والصحابةَ كانوا جميعًا يُهملون أمرَ القرآن ويعدِلون عن تحفُظه وإحرازِه، ويعوّلون على إثباته في رقعةٍ تُجعَلُ تحتَ سريرِ عائشةَ وحدَها، وفي رقاعٍ ملقاةٍ ممتهَنةٍ، حتى دخلَ داجنُ الحي فأكلَها أو الشاةُ ضاع منهم وتفقَت ودرسَ أثرُه وانقطعَ خبره! وما الذي كان تُرى يبعثُ رسولَ الله ﷺ على هذا التفريطِ والعجز والتواني، وهو صاحبُ الشريعة، والمأمورُ بحفظِه وصيانتِه ونصب الكَتَبةِ له، ويَحضُرُه خَلْقٌ كثيرٌ متبتلون لهذا الباب، ومنصوبون لكتبِ القرآن الذي يَنزِل، وكتبِ العهودِ والصلح والأمانات وغير ذلك مما نزل، ويَحدُثُ بالرسول خاصةً وبه حاجةٌ إلى إثباته... والرسولُ عليه السلامُ منصوبٌ للبيان وحِياطةِ القرآنِ وحفظِ الشريعةِ فقط، لا حرفةَ له ولا شيءَ يقطعُه من أمورِ الدنيا غيرُ ذلك إلا بنَصَبٍ يعود بنُصرةِ الدين وتوكيدِه، ويثبِتُ أمرَ القرآن ويُشِيدُه، وكيف يجوزُ في العادةِ أن يذهبَ على هؤلاءِ وعلى سائرِ الصحابةِ آيةُ الرضاع والرجمِ فلا يحفظها ويذكرها إلا عائشةُ وحدَها، لولا قلةُ التحصيلِ والذهابِ عن معرفةِ الضروراتِ، وما عليه تركيبُ الفِطَرِ والعادات، فقد بان بجملةِ ما وصفناه من حالِ الرسولِ والصحابةِ أنه لا يجوزُ أن يذهبَ عليهم شيءٌ من كتاب الله تعالى قلَّ أو كَثُرُ، وأنّ العادةَ تُوجِبُ أن يكونوا أقربَ الناسِ إلى حفظِه وحراستِه وما نزلَ منه وما وقع وتاريخهِ وأسبابهِ وناسخِه ومنسوخِه». انتهى باختصار من "الانتصار للقرآن" (1/412-418).

[تم الاستفادة في هذا الحديث من موقع الإسلام سؤال وجواب سؤال (رقم 175355)].

الفصل الرابع

مخالفة منكري السنة لما أجمعت عليه الأمة

الفصل الرابع

مخالفة منكري السنة لما أجمعت عليه الأمة

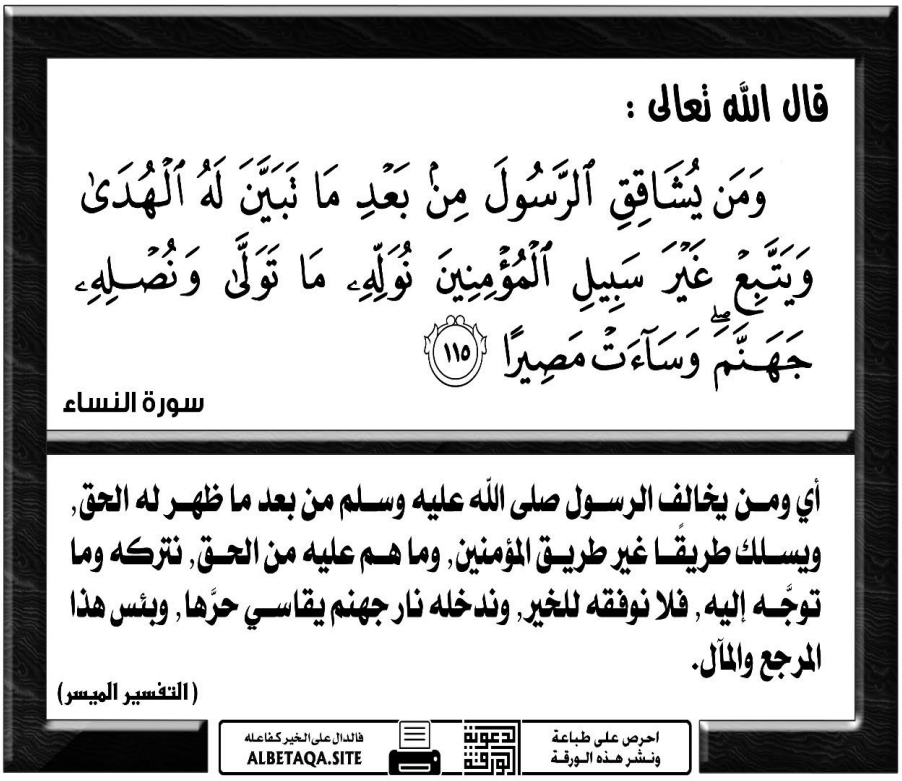

تمهيد

ما المقصود بتدبر القرآن؟

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء: ١١٥].

ديننا ولله الحمد اكتمل، ورضيه الله لنا عز وجل مع رسوله ﷺ، ونقل لنا هذا الدين الصحابة الذين نزل القرآن بلسانهم، ويخاطبهم بلغتهم الأصلية التي يتحدثون بها ويتواصلون بها فيما بينهم في حياتهم اليومية دون تكلف، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: ٤].

ونحن قبلنا نقلهم للدين، وقبلنا قراءتهم لكتاب الله وجمعهم الذي قاموا به، فمن البديهي حين يجتمعون على أي شيء آخر سنقبله منهم، فمثلًا حين يجتمعون على أوقات الصلاة وعدد ركعاتها ومواقيتها، والطهارة وأحكامها، وأحكام الصيام والحج والعمرة، فلابد لنا أن نقبل هذا الإجماع، وهذا هو سبيل المؤمنين الذي كان فيه رسول الله ﷺ قائدًا بهدى وبصيرة من الله عز وجل، وسار خلفه المؤمنون في نفس الطريق كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨].

لذا من العبث الفكري ما يقوم به البعض في التشكيك في أمور عليها إجماع المسلمين بدعوى أن تدبر القرآن يكتشف كل يوم الجديد بحسب معطيات وظروف الزمن الذي يقوم به هذا المتدبر المستنير، وهذا يأخذنا أولا لفهم المقصود من الأمر الإلهي بتدبر القرآن.

قد يتبادر سؤال إلى الذهن: **ما المقصود بتدبر القرآن الذي أمرنا الله به؟**

تدبر القرآن لزيادة الإيمان أنه من عند الله وهذا ما هو مأمور به كل شخص، أما تدبر القرآن لاستخراج الأحكام الفقهية فهذه وظيفة أشخاص محددين، ولا يحسنها أي أحد لأنه يلزمه امتلاك الأدوات اللازمة للقيام بذلك من جمع للنصوص ومعرفة باللغة وقواعدها وأصول وقواعد الاستنباط والفقه، وسنستعرض سويًا الأدلة على هذا الكلام.

أولًا: تدبر القرآن لزيادة الإيمان:

١- قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، في هذا الموضع من الأمر بتدبر القرآن يبين الله عز وجل أن تدبر القرآن يزيد من الإيمان واليقين أنه من عند الله، وكيف أنه يختلف عن كلام من دونه اختلافًا كثيرًا.

2- قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [محمد: ٢٤-٢٥]، وفي هذا الموضع يبين الله عز وجل أن تدبر القرآن يلين القلوب، وأن القلوب القاسية الأقرب للانتكاس هي التي لا تلين مع كلام الله، وهذا المعنى بالمناسبة ذكره في مواضع أخرى منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

إذن فالجميع مطلوب منه أن يتدبر القرآن لتلين قلوبهم من كلام الله، ويزدادوا إيمانًا ويقينًا في عظمته وجماله وبلاغته وإعجازه، وأخذ الموعظة من قصص الأولين، ومشاهد يوم القيامة والحساب التي ذكرها، وأوصاف الجنة والنار،

وعدم ترك يوم يمر إلا وهو له ورد يتدبر فيه بعض آياته حتى لا نكون ممن ترك القرآن وهجره –عياذًا بالله– وحتى يأتي لنا شفيعًا يوم القيامة وشاهدًا لنا لا علينا.

ثانيًا: استخراج الأحكام الفقهية عمل خاص ببعض أهل العلم، ومن أدلة ذلك:

١– قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾ [النساء: ٨٣]، يقول الطبري في تفسير هذه الآية:

٩٩٩٧– حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة: {ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم} يقول: إلى علمائهم، {لعلمه الذين يستنبطونه منهم} لعلمه الذين يفحصون عنه ويهمّهم ذلك.

٩٩٩٨– حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال، حدثني حجاج، عن ابن جريج: {ولو ردوه إلى الرسول} حتى يكون هو الذي يخبرهم، {وإلى أولي الأمر منهم} الفقه في الدين والعقل.

وبالمناسبة هذه الآية جاءت مباشرة بعد قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء: ٨٢]، وهذا يوضح الفرق بين التدبر الذي أمر الله به الجميع لزيادة الإيمان، وبين استنباط الأحكام الذي يختص به أهل العلم.

٢– قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾ [التوبة: ١٢٢]، من أقوال الطبري في تفسير هذه الآية ما نقله عن ابن عباس: «١٧٤٧٥– حدثني

محمد بن سعد قال، حدثني أبي قال، حدثني عمي قال، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قوله: {وما كان المؤمنون لينفروا كافة}، إلى قوله: {لعلهم يحذرون}، قال: كان ينطلق من كل حيّ من العرب عصابةٌ، فيأتون النبي ﷺ، فيسألونه عما يريدونه من دينهم، ويتفقهون في دينهم، ويقولون لنبي الله: ما تأمرنا أن نفعله، وأخبرنا ما نقول لعشائرنا إذا انطلقنا إليهم؟ قال: فيأمرهم نبيّ الله بطاعة الله وطاعة رسوله، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة، وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا: «إن من أسلم فهو منَّا»، وينذرونهم، حتى إن الرجل ليعرِّف أباه وأمه، وكان رسول الله ﷺ يخبرهم وينذرون قومهم، فإذا رجعوا إليهم، يدعونهم إلى الإسلام، وينذرونهم النار، ويبشرونهم بالجنة».

ثالثًا: القرآن نفسه أخبرنا أنه يحتوي على آيات متشابهات لا يحسن فهمها أي أحد، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧].

وواجب المؤمنين أن يؤمنوا به دون الخوض فيها؛ لأن الخوض فيها من علامات زيغ القلوب كما أخبرنا رسول ﷺ، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٧] قالَتْ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِذَا رَأَيْتُمُ

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ منه، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ». [أخرجه الإمام مسلم (رقم ٢٦٦٥)].

لذا ختامًا من أراد أن يتدبر القرآن لا أحد يمنعه، ولكن من أراد أن يقول في دين الله عليه أن يسلك المسلك الصحيح، وأن يمتلك الأدوات الصحيحة، فيعلم اللغة واللسان الذي نزل بها القرآن، ويعلم النظائر للآيات فيجمع الآيات ويجمع الأحاديث التي تحدثت في نفس الموضوع حتى يفهم الحكم كاملًا ويتكون لديه صورة صحيحة، ويعلم ما أجمل وما فصل، وما كان حكمًا عامًا وما ورد من مخصصات له، وكل يؤخذ ويرد عليه، والجميع يناقش الأدلة التي يسوقها على كلامه.

* هذا والله تعالى أعلى وأعلم *

مسألة الإجماع الأولى

الصلاة

لله در الصلاة كم هي كاشفة للمنافقين، وعلامة بارزة للإسلام والمؤمنين، جعل الله التهاون فيها من علامات المنافقين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

وهي أبرز شعائر الدين وأوضح علامات المؤمنين، افتتح الله بها سورة البقرة فتجدها أمامك حين تبدأ بقراءة المصحف، وأنها من علامات المؤمنين المتقين: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ١-٥].

ذكرها مرتين في صفات المؤمنين في سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١-١١]، فكانت أول صفات المؤمنين خشوعهم في الصلاة، وعاد وكررها أنها من صفات المؤمنين أن يحافظوا على صلواتهم.

وجعلها شرطًا للدين الصحيح، قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة: ١١].

جاء الأمر بها للنبي ﷺ وأهله وللمؤمنين، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنعام: ٧١-٧٢].

وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢].

توعد الله عز وجل تاركها أومن يؤديها رياء، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ٤-٧]، وقال أيضًا: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٤٢-٤٧].

أما عن صفة الصلاة، فقد جاء الأمر بها في آيات، وببعض صفاتها في آيات أخرى، ومن صفاتها أنها فيها ركوع وسجود وتسبيح، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: ٥٦].

وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧].

وقال أيضًا: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤٣].

وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [المرسلات: ٤٨-٤٩].

وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ ۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ

وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء: ١٠٢].

وقال أيضًا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١].

وفرضت الصلاة في مواقيت محددة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣].

وقال أيضًا: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقال أيضًا: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤].

وجعل المساجد بيوت الله التي أمر بعمارتها وإقامة الصلاة وذكر الله فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨].

وقال أيضًا: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

وجعل لها نداءً خاصًا بها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة: ٥٨].

وقال أيضًا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة: ٩-١١].

وأمرنا بالطهارة استعدادًا لأدائها، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة: ٦].

كل هذه الآيات وغيرها التي وردت في كتاب الله عن الصلاة؛ لتبين لنا أنها عبادة مركزية في الإسلام؛ ولذلك لا يمكن أن يتركها الله عز وجل دون توضيح وتبيين لأسئلة مهمة مثل:

كيف نقيم الصلاة على النحو الذي يرضيه؟

ما هي شروط صحتها؟

كم مرة نصلي في اليوم والليلة؟ وما هي مواقيتها؟

ما هي الركعات؟ وكيف نركع؟

ما هي السجدات؟ وكيف نسجد؟

ما التسبيح في الصلاة؟

ما هو النداء للصلاة؟

ومن يقول أن الله عز وجل لم يبينها فقد كذّب الله عز وجل الذي أخبرنا بكمال الدين؛ لذا كمال الدين يستوجب أن نعرف كل شيء عن عبادة كالصلاة، ولأن الصلاة عبادة بها أقوال وأفعال فأفضل شيء لشرحها هو رؤيتك لمن يقوم بها أمامك، وهنا يأتي دور الرسول ﷺ في تعليم المؤمنين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال أيضًا: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ومنكرو السنة النبوية على درجات متفاوتة من الصلاة:

*منهم من ينكرها ويخالف إجماع المسلمين عليها، ويختار طريق تكذيب الله عز وجل بكمال الدين، فيذهب ليبحث عن تفسيرات يكمل بها دينه الذي استحدثه لنفسه ليعلم ما هي الصلاة، وما هي مواقيتها وصفتها، وكم مرة يصلي في اليوم والليلة وغيرها من الأمور المتعلقة بالصلاة، والعجيب أنه ذهب لآيات الله التي لا يملك على صحة نقلها لنا إلا إجماع الأمة على هذا النقل، فهو قبِل إجماعهم في نقل القرآن ولم يقبل إجماعهم على الصلاة!! وما المعيار لقبول هذا، ورد الآخر؟ –لا معيار سوى اتباع الهوى، ونعوذ بالله من اتباع الهوى، ومن قال: لقد تعهد الله عز وجل في كتابه بحفظه هو لا يدري أنه لا يملك دليلًا واحدًا صحيحًا على أن هذا هو كلام الله حقًا، ونُقل لنا بطريقة صحيحة إلا إجماع الأمة على هذا النقل، وهذا الإجماع اعتبرناه دليلًا صحيحًا وقبلناه في إثبات صحة نقل القرآن، فلماذا نرده في نقل الصلاة وما يتعلق بها من صفتها ومواقيتها وشروط صحتها، وكلها أمور أجمع أيضًا عليها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها على مر الأزمان،

يؤدونها بنفس الطريقة، ولم يخالفهم إلا من اختار أن يضل {ويتبع غير سبيل المؤمنين}، ونسأل الله العافية.

*وفريق لم يجد مفرًا من الاعتراف أن الصلاة وردت لنا بالتواتر (العملي) عن الرسول ﷺ، وهنا لنا وقفة مع هذا الفريق:

فالتواتر العملي يصل بنا للرسول ﷺ مصدر هذا التواتر، وهذا أمر جيد، والآن من علّم الرسول ﷺ الصلاة؟ –نحن أمام خيارين كل منهما يثبت حجية السنة:

الأول: أنه تعلمها من وحي من عند الله، وهنا أنت تقر بوجود وحي خارج كتاب الله نزل يعلم الرسول ﷺ شعائر الدين، وهذا الوحي يوجب علينا اتباعه.

الثاني: أنه ابتكرها بنفسه واتبعته الأمة وتركه الله عز وجل دون أن يعاتبه أو يعاقبه، أي أقرّه الله عز وجل على فعله، وهذا الإقرار يوجب علينا اتباعه.

فلله در الصلاة كم هي علامة فارقة في هذا الدين!

مسألة الإجماع الثانية

تحريم الزنا

تحريم الزنا أمر عليه إجماع المسلمين بلا منازع، فالزنا أمر ورد تحريمه وتغليظ العقوبات عليه في مواضع كثيرة، بل وتحريم المقدمات التي تؤول إليه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ [الإسراء: ٣٢]، يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «قال تعالى ناهيًا عباده عن الزنا وعن مقاربته وهو: مخالطة أسبابه ودواعيه {ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة} أي: ذنبًا عظيمًا، {وساء سبيلا} أي: وبئس طريقًا ومسلكًا».

يحكي الإجماع على تحريم الزنا العديد من العلماء منهم:

الفاكهاني حيث يقول: «لا خلاف بين الأئمة أن الزنا مُحرَّم، ومن أكبر الكبائر». [موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي– المجلد ٩– الصفحة ٢٧٦– جامع الكتب الإسلامية]

وقال ابن رجب في "جامع العلوم والحكم" (٤٤٢): «الزنا المجمع على تحريمه».

بل وذكر بعض الأئمة أن الإجماع على الزنا ليس فقط بين أهل الإسلام، وإنما في جميع الأديان، قال ابن الهمام : «الزنا حرام في جميع الأديان، والملل لا تختلف في هذه المسألة». [فتح القدير (٥/ ٢٥٧)].

وقال ابن حجر الهيتمي: «أجمعت الملل على عظيم تحريمه». [تحفة المحتاج شرح المنهاج (٩/ ١٠١)]، وحكى الإجماع عليه أيضًا في "الزواجر عن اقتراف الكبائر" (٢/ ٢٢٤).

بل وإن الزنا تأباه الفطرة السليمة التي ترى للإنسان عقلًا يتحكم في نزواته وشهواته، فلا يصبح عبدًا لشهواته، ولو رأينا أدلة تحريم الزنا فهي كما قلنا عديدة ومتنوعة، وكثرة هذه النصوص تبين لنا عظم الزنا وكراهيته في الدين، وسنستعرض بعض الأدلة من كتاب الله على تحريمه:

الدليل الأول: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ [الإسراء: ٣٢].

• **وجه الدلالة:** أن الله تعالى نهى عن الاقتراب من الزنا، وهذا يدل على تحريم ارتكابه من باب أولى، ثم وصفه تعالى بأنه فاحشة، والفاحشة أقبح المعاصي، قال القرطبي: «قوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا} أبلغ من أن يقول: ولا تزنوا، فإن معناه لا تدنوا من الزنا». [تفسير القرطبي (١٠/ ٢٥٣)].

الدليل الثاني: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩].

• **وجه الدلالة:** أن الله توعد من فعل الزنا بالإثم ومضاعفة العذاب له يوم القيامة، وقد قرنه جل وعلا بالشرك وقتل النفس، وهذا يدل على تحريمه.

الدليل الثالث: قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور: ٢].

• **وجه الدلالة:** أن الله تعالى رتب الحد على فعل الزنا، ولا يكون ذلك إلا على كبيرة.

وأعتقد أننا لا نحتاج لمزيد من الأدلة، ولكن الأمر العجيب أن منكر السنة مع غزارة هذه الأدلة ووضوحها تجده لا يتورع عن إباحة الزنا ونسأل الله العافية.

والحقيقة أن الدعوة إلى إباحة فاحشة من الفواحش هي دعوة لاتباع خطوات الشيطان، ويجب التصدي لها وللداعين إليها، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَـٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾ [النور: ٢١].

ودائمًا نجد في كل من يريد التحايل على شرع الله اللجوء للطرق الملتوية؛ ولهذا ذكر الله عز وجل لنا قصة أصحاب السبت في سورة الأعراف، وكيف أن تحايلهم أدى إلى أن حل عليهم عقاب الله عز وجل، وهذا لأن الله عز وجل مطلع ولا يخفى عليه شيء، ويعلم النوايا وما تخفي الصدور أو كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ...﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال أيضًا في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [البقرة: ٨-٩].

وفي مسألة الزنا نجد التحايل يتم بطرق كتغيير المسمى، واستحداث مسمى جديد مثل: (المساكنة)، أو تحريف مصطلح الزنا عن معناه وإعطائه معنى جديدًا مثل: (فعل الفاحشة– الفاحشة العلنية) وما شابه من معاني تفتح الباب لأن يكون في ذهن القارئ أنه ليس كل الزنا محرم، وإضفاء نوع من التحليل على أنواع منه تتم بالتراضي أو تتم دون أن تكون علانية ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

هؤلاء ألم يعلموا أن الله عز وجل حرّم مجرد اتخاذ الأخدان، وجاء التحريم به مرتين في كتاب الله: مرة يخاطب به الرجال، ومرة يخاطب به النساء فقال تعالى:

﴿... فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ ...﴾ [النساء: ٢٥]، وقال أيضًا: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥﴾ [المائدة: ٥]، وتكرار النهي يبين عظم هذا النهي وأهميته؛ لذا لا يمكن إهماله وتجاوزه.

كما أن الله عز وجل ذكر لنا قصة أصحاب السبت بشيء من التفصيل، وبين لنا كيف أن تحايلهم على شرع الله أوجب عليهم عقوبة شديدة في الدنيا قبل الآخرة كما قال تعالى:﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٦].

وكل هذا التحايل لم ينزل الله به من سلطان، ولا أدري هؤلاء ماذا يريدون من مجتمعاتنا ومن بناتنا؟ والزنا علاقة تتم بالتراضي في غالب أحوالها، وأما ما كان فيه إكراه فهو يدخل في حالات الاغتصاب وهذا أمر آخر، وأمور كالمساكنة هي تمامًا كالزواج لكن دون عقد، وهذا منافٍ تمامًا لأمر الله عز وجل الذي يحفظ الحقوق للرجل وللمرأة، فشرع لها عقد زواج عليه شاهدان، وأن يكون لها ولي يدافع عن حقوقها فلا يستضعفها أحد أو يخدعها مثلًا بعد فترة فيهجرها، ولا يتحمل مسؤولية الأبناء، أو يرفض نسبهم، وبهذا عقد الزواج من الأمور التي تحفظ

الحقوق، فمن يريد (أن يساكن) امرأة عليه أن يعطيها حقوقها التي أوجبها الله عز وجل، وحقيقة لا أجد هذه الدعاوى إلا لمجرد التهرب من أداء الحقوق وتهرب من المسؤولية، ولكن من يظن أن الله غافل فقد وهم، فما هي إلا فترة قليلة وسيلقى الله وسيؤدي ما عليه من حقوق كاملة، فهو لم يفعل أكثر من قوله تعالى: {يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم}؛ لأنه في النهاية سيحاسب على هذه الأفعال، ولن يجد له من دون الله وليًا ولا نصيرًا، ولن ينفعه دعاوي الداعين لتحليل المساكنة ولا غيره فالحلال بين والحرام بين.

* هذا والله تعالى أعلى وأعلم *

مسألة الإجماع الثالثة

تحريم الخمر

<u>حكاية الإجماع:</u>

يحرم شرب الخمر قليلها وكثيرها في المذاهب الفقهية الأربعة، وفي مذهب الظاهرية، وفي أقوال بعض السلف:

عند الحنفية: في "حاشية ابن عابدين" (٤٥٥/٦).

عند المالكية: في "الكافي" لابن عبد البر (٤٤٢/١)، "المقدمات الممهدات" لابن رشد (٤٤٢/١)، "الفواكه الدواني" للنفراوي (٢٨٨/٢).

عند الشافعية: "روضة الطالبين" للنووي (١٦٨/١٠)، ويُنظر: "المهذب" للشيرازي (٣٧٠/٣)، "أسنى المطالب" لزكريا الأنصاري (١٥٨/٤).

عند الحنابلة: "الفروع" لابن مفلح (١٠ /٩٦)، "كشاف القناع" للبهوتي (١١٦/٦).

عند الظاهرية: قال ابنُ حزم: «كلُّ شيءٍ أسكر كثيرُه أحدًا من النَّاسِ، فالنقطةُ منه فما فوقَها إلى أكثَرِ المقاديرِ: خَمرٌ حرامٌ مِلكُه، وبَيعُه، وشُربُه، واستعمالُه على أحدٍ؛ وعصيرُ العِنَبِ ونَبيذُ التِّينِ، وشَرابُ القَمحِ والسيكرانِ، وعَصيرُ كُلِّ ما سواها ونقيعُه، وشَرابُه –طُبِخَ كلُّ ذلك أو لم يطبخ، ذهب أكثَرُه أو أقَلُّه– سواءٌ في كُلِّ ما ذكَرْنا، ولا فَرْقَ». ["المحلى" (١٧٦/٦)].

وممن نقل عنه من أئمة السلف: قال ابن عبد البر: «وهو قول جماعةٍ من أهل الحِجاز والشام». ["الكافي" (٤٤٢/١)].

وقال ابن حجر: «وقال أهلُ المدينة وسائِرُ الحجازيّين وأهلُ الحديثِ كُلُّهم: كلُّ مُسكرٍ خَمرٌ، وحُكمُه حُكمُ ما اتُّخِذَ من العِنَبِ». "فتح الباري" (٤٨/١٠)، وقال أيضًا: «وقد نقل ابنُ المُنذِرِ عن الشافعيّ ما يوافِقُ ما نقلوا عن المُزَني، فقال: قال إنَّ الخَمرَ مِن العِنَبِ ومِن غَيرِ العِنَبِ: عُمَرُ، وعلي، وسعيد، وابنُ عمر، وأبو

موسى، وأبو هريرة، وابن عبَّاس، وعائشةُ؛ ومن التابعين: سعيدُ بنُ المُسَيب، وعُروةُ، والحسن، وسعيدُ بن جُبَير، وآخرون، وهو قَولُ مالكٍ، والأوزاعيّ، والثوريّ، وابنِ المبارك». "فتح الباري" (٤٩/١٠).

قال النووي: «وأما الخمر فقد أجمع المسلمون على تحريم شرب الخمر، وأجمعوا على وجوب الحد على شاربها سواء شرب قليلًا أو كثيرًا». [ص٧- كتاب شرح صحيح مسلم حسن أبو الأشبال- نقل الإجماع على تحريم شرب الخمر ووجوب حد شاربه].

أدلة التحريم:

أوَّلًا: مِنَ الكتاب:

قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة: ٩٠].

ثانيًا: مِنَ السُّنَّة:

عن ابنِ عُمرَ رضي الله عنهما قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «كُلُّ مُسكِرٍ خَمرٌ، وكُلُّ خَمرٍ حَرامٌ». [أخرجه الإمام مسلم (٢٠٠٣)].

ثالثًا: مِنَ الآثارِ:

عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: سَمِعتُ عُمَرَ رَضِيَ الله عنه على مِنبَرِ النبيِّ ﷺ، يقولُ: «أمَّا بَعدُ، أيُّها النَّاسُ، إنَّه نزل تحريمُ الخَمرِ، وهي مِن خَمسةٍ: مِنَ العِنَبِ والتَّمرِ، والعَسَلِ والحِنطةِ والشَّعيرِ، والخَمرُ ما خامرَ العَقلَ». [أخرجه البخاري (٤٦١٩)، ومسلم (٣٠٣٢)].

وجهُ الدَّلالةِ: قولُه: «والخَمرُ ما خامر العَقلَ» يريدُ أنَّه ليس بمقصورٍ على هذه الخَمسةِ التي كانت، وأنَّ العِلَّةَ النَّشوةُ وما خامَرَ العَقلَ. ["شرح الزرقاني على مختصر خليل" (١٩٦/٨)].

وقد اختلف العلماء في مدلول لفظ الخمر، وفي المراد به في قوله تعالى: {إنما الخمر والميسر}، قال ابن عبد البر: قال الكوفيون: إن الخمر من العنب لقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: ٣٦]، قال: فدل على أن الخمر هو ما يعتصر، لا ما ينتبذ، وهذا لا دليل فيه على الحصر، فكل ما يدل عليه أن ما يعصره يسمى خمرًا، لا أن غيره لا يسمى خمرًا.

وقالوا: واتفقت الأمة على أن عصير العنب إذا اشتد وغلي، وقذف بالزبد، فهو خمر، وأن مستحله كافر، ولم يكفروا مستحل نبيذ التمر، فثبت أنه لا يدخل في الخمر غير المتخذ من عصير العنب.

والرد على ذلك بأنه لا يلزم من اختلاف الحكم بين أمرين اختلافهما في اللفظ والاسم، فالزنا مثلًا يصدق على من وطئ أجنبية، وعلى من وطئ امرأة جاره، وعلى من وطئ محرمًا له، وكلها مختلف في الحكم، واسم الزنا مع ذلك شامل للثلاثة.

وقالوا: أطبق أهل اللغة على تخصيص الخمر بالعنب، ولهذا اشتهر استعمالها فيه.

ورُدَّ عليهم بأنه قد ثبت النقل عن بعض أهل اللغة بأن غير المتخذ من العنب يسمى خمرًا، وقال الخطابي: زعم أن العرب لا تعرف الخمر إلا من العنب، فيقال لهم: إن الصحابة الذين سموا غير المتخذ من العنب خمرًا عرب فصحاء، فلو لم يكن هذا الاسم صحيحًا لما أطلقوه، وقال ابن عبد البر: «إن القرآن لما نزل بتحريم الخمر فهم الصحابة –وهم أهل اللسان– أن كل شيء يسمى خمرًا يدخل في النهي، فأراقوا المتخذ من التمر والرطب، ولم يخصوا ذلك بالمتخذ من العنب».

وذهب بعض الشافعية إلى موافقة الكوفيين في دعواهم: أن اسم الخمر خاص بما يتخذ من العنب، لكنهم يخالفونهم في الحكم، إذ لم يفرقوا بين عصير العنب وغيره، فقالوا بتحريم قليل ما أسكر كثيره من كل شراب.

قال الحافظ ابن حجر: ويمكن الجمع، بأن من أطلق على غير المتخذ من العنب حقيقة الخمر، أراد الحقيقة الشرعية، ومن نفى أراد الحقيقة اللغوية.

قال ابن عبد البر: والحكم إنما يتعلق بالاسم الشرعي، دون اللغوي.

ختامًا لما سبق نقله من أقوال للعلماء، لا إشكال أبدًا في تحريم الخمر، والأمة أجمعت على تحريمه، وحتى وإن كان النقاش والجدال يدور حول ماهية الخمر؟ وما هو المسكر؟ وهل يختص بشراب العنب أم يشمل غيره؟ وهل هو ما يعصر أو ما ينبذ؟ لكن يظل الحكم بالتحريم للخمر منعقد عليه الإجماع، ولكن البعض قد يدلس على الناس، ويستغل عدم إحاطة البعض بأقوال الفقهاء أو نقاشاتهم ويلبس عليهم دينهم، ويوهمهم أن تحريم الخمر ليس عليه إجماع وهذا كما بينا كلام غير صحيح أبدًا.

وخرج علينا من ينكر هذا الإجماع بطريق شاذ وغريب وهو أن لفظ {فاجتنبوه} لا تعني التحريم!! وهذا كلام مناقض للعديد من الآيات التي وردت في كتاب الله تحمل الأمر بالاجتناب وتعني التحريم الصريح، ومنها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [الحج: ٣٠]، والآية هنا بدأت بتعظيم حرمات الله ثم أمر الله عز وجل فيها باجتناب الأوثان وقول الزور، فهل يعقل أن يقول أحد أن الأوثان وقول الزور ليست من المحرمات أو لا حرج فيهم؟!

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ [النحل: ٣٦]، هل قوله تعالى: {واجتنبوا الطاغوت} يحمل أي دلالة غير التحريم؟

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٣١ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم: ٣١-٣٢]، في هذه الآيات بين الله عز وجل أن الاجتناب يكون مع كبائر الإثم والفواحش، وهو من صفات المؤمنين أن يجتنبوا هذه الكبائر.

لذا فالقول أن لفظ {فاجتنبوه} لا تعني التحريم هذا ينقضه آيات من كتاب الله عز وجل التي ورد فيها نفس الأمر بالاجتناب ويعني التحريم.

* هذا والله تعالى أعلى وأعلم *

مسألة الإجماع الرابعة

النسخ

<u>النسخ في الاصطلاح</u>: رفع حكم دليل شرعي، أو لفظه، بدليل من الكتاب أو السنة.

والنسخ ثابت في الكتاب والسنَّة، قال الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦﴾ [البقرة: ١٠٦]، هذا هو الذي عليه أهل العلم قاطبة، قال ابن الجوزي رحمه الله: «بَابُ إِثْبَاتِ أَنَّ فِي الْقُرْآنِ مَنْسُوخًا: انْعَقَدَ إِجْمَاعُ الْعُلَمَاءِ عَلَى هَذَا، إلا أَنَّهُ قَدْ شَذَّ مَنْ لا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ فَحَكَى أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ أَنَّ قَوْمًا قَالُوا: لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ نَاسِخٌ وَلا مَنْسُوخٌ، وَهَؤُلاءِ خَالَفُوا نَصَّ الْكِتَابِ، وَإِجْمَاعَ الأُمَّةِ قَالَ الله عز وجل: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا}». انتهى من "نواسخ القرآن" (ص15).

وقال ابن عبد البر رحمه الله: «النَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ إِنَّمَا يَكُونان فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَمَّا فِي الْخَبَرِ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ: فَلَا يَجُوزُ النَّسْخُ فِي الْأَخْبَارِ الْبَتَّةَ بِحَالٍ». انتهى من "التمهيد" (٣/ ٢١٥).

إنكار النسخ لا يعرف إلا عن اليهود، قال الشوكاني رحمه الله: «أَمَّا جَوَازُ النسخ: فَلَمْ يُحْكَ الْخِلَافُ فِيهِ إِلَّا عَنِ الْيَهُودِ، وَلَيْسَ بِنَا إِلَى نَصْبِ الْخِلَافِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ حَاجَةٌ، وَلَا هَذِهِ بِأَوَّلِ مَسْأَلَةٍ خَالَفُوا فِيهَا أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ، حَتَّى يَذْكُرَ خلافهم في هذه المسألة». انتهى من "إرشاد الفحول" (٢/ ٥٢).

<u>الأدلة على النسخ من كتاب الله:</u>

قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦﴾ [البقرة: ١٠٦].

في تفسير ابن كثير لمعنى (ننسخ) في هذه الآية نقل أقوالًا مأثورة منها:

قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: {ما ننسخ من آية} ما نبدل من آية.
وقال ابن جريج، عن مجاهد: {ما ننسخ من آية} أي: ما نمح من آية.
وقال ابن جرير: {ما ننسخ من آية} ما ينقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره ، وذلك أن يحول الحلال حرامًا والحرام حلالًا والمباح محظورًا، والمحظور مباحًا، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر، والإطلاق، والمنع والإباحة، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب، وهو نقله من نسخة أخرى إلى غيرها، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره، إنما هو تحويله ونقل عبادة إلى غيرها، وسواء نسخ حكمها أو خطها، إذ هي في كلتا حالتيها منسوخة، وأما علماء الأصول فاختلفت عباراتهم في حد النسخ، والأمر في ذلك قريب؛ لأن معنى النسخ الشرعي معلوم عند العلماء، ولخص بعضهم أنه رفع الحكم بدليل شرعي متأخر، فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل، وعكسه، والنسخ لا إلى بدل، وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسوط في فن أصول الفقه.

ولو نظرنا لتعريف معنى (نسخ) في اللغة:

في معجم المعاني الجامع: نسَخَ: (فعل)، نسَخَ يَنسَخ، نَسْخًا، فهو ناسخ، والمفعول مَنْسوخ، نسَخ الكتابَ: نقله وكتَبه حرفًا بحرف، نسخ فلان الشعر: أخذ اللفظ والمعنى من غيره، نَسَخَ الوَثِيقَةَ: صَوَّرَهَا، نَسَخَ الشيءَ: أَزَالَهُ.

وورد في معجم لسان العرب في معنى (ينسخ): الْعَرَبُ تَقُولُ: نَسَخَتِ الشَّمْسُ الظِّلَّ وَانْتَسَخَتْهُ أَزَالَتْهُ، وَالْمَعْنَى أَذْهَبَتِ الظِّلَّ وَحَلَّتْ مَحَلَّهُ، قَالَ الْعَجَّاجُ:

إِذَا الْأَعَادِي حَسَبُونَا، نَخْنَخُوا بِالْحَدْرِ وَالْقَبْضِ الَّذِي لَا يُسْنَخُ

أَيْ: لَا يَحُولُ، وَنَسَخَتِ الرِّيحُ آثَارَ الدِّيَارِ: غَيَّرَتْهَا.

وما يثبت أيضًا وجود النسخ في آيات الله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ

ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ [النحل: ١٠١-١٠٢].

قَالَ قَتَادَةُ: هُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا}. ["تفسير ابن كثير" (٤/ ٦٠٣)].

والآية الأولى ظاهرة في كون المراد بالنسخ الآيات القرآنية وليس الآيات الكونية، بدلالة قوله تعالى بعدها: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}، والله عز وجل يحكم بما يشاء وكيفما يشاء سبحانه {لا يُسأل عما يفعل}، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: ٦٨].

لذلك حين يريد الله عز وجل أن يبدل حكمًا أو يغيره فهذا شأنه، فالحكم حكمه والملك ملكه ولا إله غيره، ولا يوجد منا من يقول هذا يجوز في حق الله أو لا يجوز إلا إن كان هو عز وجل أخبر بذلك عن نفسه، وسبحانه منزه عن كل نقص، وأن يشدد عز وجل في حكم على العباد أو يخفف أو يحل عليهم ما كان حرامًا أو يحرم ما كان حلالًا هذا لا ينتقص منه ولا من حكمته أبدًا، والله عز وجل أخبر أنه:

١- حرّم ما كان أحله، وهذا كنوع من أنواع العقاب، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١].

٢- أحلّ ما كان حرامًا، كما قال تعالى على لسان عيسى ابن مريم: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٠].

ومن يقول أن النسخ بين الشرائع، هذا الاعتراض ليس بذي أهمية ففي النهاية المشرّع واحد، وهو الله عز وجل، والمكلَّف واحد وهم بنو آدم الذين أتاهم الرسول، فالحكم الأول لم يكن لجنس آخر غير جنس البشر، فلو لم يأتيهم الرسول يبقى حكم الله الأول، ولو آتاهم يلزمهم حكمه الثاني، وهذا يثبت أن الله عز وجل قد يبدل أو يغير في الأحكام كيف يشاء، ولا يجوز لنا إلا التسليم لما أمر به متى ثبت عندنا صحة هذا الحكم.

٣- يخفف من حكم،كما قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فهنا أخبر الله عز وجل أنه سيحاسب على (خفايا النفوس)، ثم بعدها قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وهنا ولله الحمد أصبح التكليف والحساب على ما اكتسبنا فقط، وخفف الله على هذه الأمة؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ به أَنْفُسَهَا، ما لَمْ تَعْمَلْ، أَوْ تَكَلَّمْ بِهِ». [والحديث في صحيح مسلم (رقم ١٢٧)].

وجدير بالذكر أن سبب التخفيف هو إذعان الصحابة لأمر الرسول ﷺ، وهذا يبين فضل الصحابة علينا، فبسبب طاعتهم لأوامر الله ورسوله خفف الله عز وجل عن الأمة في الأمور التي سنحاسب عليها، فجزاهم الله عنا خير الجزاء.

وهذا ما ذكره ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: {وإن تبدوا مافي أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله} فقال: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثني أبو عبد الرحمن يعني العلاء عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: لما

نزلت على رسول الله ﷺ: «لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير» اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير»، فلما أقرّ بها القوم وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير}، فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} ...إلى آخره.

٤- يشدد من حكم، كما ذكر في تشديده على بني إسرائيل حين أمرهم أن يذبحوا بقرة، فكلما جادلوا زاد عليهم في مواصفات البقرة، وكما شدّد في تحريم الخمر حتى نزل التحريم النهائي، وكما ذكر من إباحته للنبي ﷺ الزواج من النساء، ثم حرم عليه في آخر الأمر الزواج ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢﴾ [الأحزاب: ٥٢].

ختامًا مبحث النسخ مبحث فقهي يلزمه طول تبحر، ومعرفة بأسباب النزول والتواريخ بدقة، وجمع لكل النصوص والآيات والأحاديث وأقوال الصحابة، ولا يقول أحد بالنسخ لحكمين طالما أمكن الجمع بينهما والعمل بهما معًا، كما أن معرفة الناسخ والمنسوخ من المسائل التي قد يختلف فيها أهل العلم، وقد حصر السيوطي رحمه الله الآيات المنسوخة في عشرين آية ذكرها في "الإتقان" (٣/ ٧٧)، وقد اختلف العلماء في بعض هذه الآيات، هل هي منسوخة أم لا ؟ وانظر "تكملة

أضواء البيان" (٩/ ١٩٥)، فعدد الآيات المنسوخة محل اجتهاد واختلاف بين العلماء، ولكن هذا لا ينفي وجود النسخ، وأن هناك فعلًا نسخ حدث لبعض الأحكام والتشريعات التي أنزلها الله عز وجل.

* هذا والله تعالى أعلى وأعلم *

مسألة الإجماع الخامسة

عذاب ونعيم القبر

الانتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة أمر غيبي لا نقول فيه إلا بما ثبت عندنا من الوحي الذي أوحاه الله عز وجل لرسوله ﷺ، يظن البعض أن عذاب القبر ذُكر فقط في السنة النبوية، ولا يعلم أن عذاب القبر ذكر في كتاب الله عز وجل سواء بطريق مباشر أو غير مباشر وعليه إجماع أهل العلم.

حكاية الإجماع:

حكى شيخ الإسلام ابن تيمية في أكثر من موضع اتفاق أهل السنة والجماعة على الإيمان بعذاب القبر ونعيمه، فقال: العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن وتعذب متصلة بالبدن، والبدن متصل بها. [مجموع الفتاوى (٢٨٢/٣)].

وقال رحمه الله تعالى: «اعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها: أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا، فيحصل له معها النعيم والعذاب» [مجموع الفتاوى (٢٨٢/٤)].

وتتابع العلماء على حكاية إجماع الأمة على القول بعذاب القبر، فقال الإمام أبو الحسن الأشعري: «وأجمعوا أن عذاب القبر حق، وقال: وأجمع على ذلك الصحابة والتابعون». [رسالة إلى أهل الثغر ص١٥٩].

وقال الإيجي: «وعذاب القبر للكافر والفاسق كلها حق عندنا، واتفق عليه سلف الأمة قبل ظهور الخلاف». [المواقف ٥١٦/٣].

وقال التفتازاني: «اتفق الإسلاميون على حقية سؤال منكر ونكير في القبر، وعذاب الكفار وبعض العصاة فيه». [شرح المقاصد ٢١٠/٢].

وقال ابن أبي العز: «وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة» [شرح الطحاوية ص ٣٩٥].

وقال المناوي: «وقد أجمع أهل السنة على وجوب الإيمان بسؤال القبر وعذابه، لآيات وأخبار متواترة المعنى». [فيض القدير 1/130].

وسأحاول باختصار عرض الأدلة على عذاب القبر:

أولًا: الأدلة العقلية:

١- نحن آمنا بما هو أشد من عذاب مؤقت في القبر، وهو الخلود في عذاب جهنم عياذًا بالله، فمن يقدر على أن يعذب في نار جهنم إلى ما شاء الله لا يعجزه أن يعذب فترة مؤقتة في القبر.

٢- الله عز وجل هو الذي يتوفى الأنفس بمجرد موتها، ومن شاء أن يبدأ عذابه منذ وفاته سيبدأه، ومن أراد أن ينعمه -كما قال تعالى عمَّن قتل في سبيل الله- فلن يرد حكمه وقضاءه أحد، ولن يجد له ما يمنعه من الله أو حتى يؤخره عنه.

٣- لم يرد نص ثابت أنه لا يوجد عذاب إلا يوم القيامة، وفي نفس الوقت نملك العديد من الآيات المحكمات التي تبشر بعذاب في الدنيا قبل الآخرة، وعذابين للمنافقين؛ ولهذا عذاب القبر لا يوجد نص شرعي يمنعه.

وهناك من كان يردد جملة رنانة (لا عذاب دون حساب)، وهذه جملة لا دليل عليها من كتاب الله، وقائمة على فهم خاطئ للآيات.

قال تعالى أنه يؤخر العذاب إلى يوم القيامة في بعض الآيات، فقال تعالى:﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١]، وقال أيضًا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴿٥٣﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣]، ولهذا يظن البعض أن لا عذاب في الدنيا، وهذا ظن خاطئ لعدة أسباب:

* العذاب المذكور هو العذاب العام المهلك للقرى {ما ترك على ظهرها من دابة} أو عذاب النار؛ لأن هذا وعيد الله للكفار، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه: ٧٥]، فهنا بيّن أن الله توعد الكفار بأحد الأمرين: (عذاب يهلكهم أو عذاب جهنم يوم القيامة)، وقال أيضًا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [الحج: ٤٧-٥١].

* الله عز وجل ذكر أنواعًا من العذاب في الدنيا، وذكر أنه لو رفعه سيعود الناس للعمل سواء للطغيان أو لعلهم يرجعون ويتوبون، والتوبة طبعًا لا تكون إلا في الدنيا، العمل فقط في الدنيا، أما في الآخرة فلا عمل، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [المؤمنون: ٧٥-٧٧]، وقال أيضًا: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١].

* الله عز وجل حدد أصنافًا من الناس بعينها لها عذاب في الدنيا والآخرة منهم المنافقون نفاقًا عقديًا أخرجهم من الإسلام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة: ٧٣-

٧٤]، ومنهم الذين يحبون إشاعة الفاحشة في المؤمنين فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ١٩﴾ [النور: ١٩]؛ ولهذا فالله سبحانه له الخلق والأمر، ومتى قضى أمرًا فلا راد لقضائه، ومن أراد أن يقول أي شيء في دين الله وجب عليه إحضار الدليل الصحيح أن هذا من دين الله، وإلا فالكذب على الله من أشد أنواع الظلم كما قال تعالى: ﴿... فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ١٤٤﴾ [الأنعام: ١٤٤].

<u>أما عن الأدلة النقلية</u> من كتاب الله على عذاب القبر ونعيمه:

١- قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ١٧٠ * يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ١٧١﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١]، هذه الآيات تثبت أن الشهداء أحياءٌ عند ربهم يُرزقون، وسبحانه القادر على كل شيء كما جعل الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، فهو قادر على أن يجعل من يشاء أحياء ويعذبون، سبحانه إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، وهذا المعنى أكّده مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ١٥٤﴾ [البقرة: ١٥٤].

٢- قال تعالى في خواتيم سورة الواقعة: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ٨٣ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ٨٤ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ٨٥ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ٩٤ إِنَّ هَٰذَا

لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٩٦﴾ [الواقعة: ٨٣-٩٦]، في هذه الآيات إثباتُ نعيم القبر وعذابه، فالفاء تدل على التعقيب المباشر بعد قبض الروح، فالمؤمن –الذي هو مِن المقرَّبين– يكون له مباشرة بعد قبض روحه راحةٌ وريحانٌ وجنة نعيم، والمكذِّب الضال يكون له مباشرة بعد قبض روحه ضيافةٌ من عذاب الحميم، ويصلى نارًا {فنُزل من حميم وتصلية جحيم} قبل يوم القيامة عياذا بالله.

٣– قال تعالى عن توفي الملائكة للكافرين: ﴿... وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٩٣﴾ [الأنعام: ٩٣]، فالآيات تحكي عن قسوة مشهد توفي الملائكة للظالمين الكافرين، وكيف تخرج أرواحهم وتبشرهم بالعذاب {اليوم تجزون عذاب الهون} في يوم الوفاة قبل الآخرة، وهذا المعنى أكّده في موضع آخر في سورة الأنفال: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٥١﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١]، ففي هذه الآية يخبرنا الله تعالى أن الملائكة تضرب وجوه الكافرين وأدبارَهم؛ تعذيبًا لهم واحتقارًا لهم عند قبض أرواحهم، وتقول لهم حين تقبض أرواحهم: ذوقوا عذاب الحريق، وهذا يعني في نفس يوم وفاتهم، بل ولحظة قبض أرواحهم تقبض بكل هذا الضرب والعذاب.

٤– قال الله سبحانه عن المنافقين: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١﴾ [التوبة: ١٠١]، قال المفسّرون: العذاب الأول في الدنيا، والعذاب الثاني في القبور، ثم يُرَدُّون في الآخرة إلى عذاب غليظ، وهو عذاب جهنم، كما ورد في تفسير الطبري نقل بعض الأقوال المأثورة في ذلك:

١٧١٣٠- حدثنا بشر قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة: {سنعذبهم مرتين} عذاب الدنيا وعذاب القبر، {ثم يردون إلى عذاب عظيم} ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ أسرَّ إلى حذيفة باثني عشر رجلا من المنافقين فقال: «ستة منهم تكفيكَهم الدُّبيلة، سِراج من نار جهنم، يأخذ في كتف أحدهم حتى تُفضي إلى صدره، وستة يموتون موتًا»، ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رحمه الله، كان إذا مات رجل يرى أنه منهم نظر إلى حذيفة، فإن صلى عليه وإلا تركه، وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة: أنشُدُك الله، أمنهم أنا؟ قال: لا والله، ولا أومِن منها أحدًا بعدك!

١٧١٣١- حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن الحسن: {سنعذبهم مرتين} قال: عذاب الدنيا وعذاب القبر.

١٧١٣٢- حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن العلاء قالا حدثنا بدل بن المحبر قال، حدثنا شعبة، عن قتادة: {سنعذبهم مرتين} قال: عذابًا في الدنيا، وعذابًا في القبر.

١٧١٣٣- حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال، حدثني حجاج، عن ابن جريج قال: عذاب الدنيا، وعذاب القبر، ثم يردّون إلى عذاب النار.

٥- قال الله عز وجل عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: ٤٦]، وهذه الآية من أوضح الآيات على العذاب قبل يوم القيامة لأن وصفه {غدوا وعشيا} هو وصف لأيام الدنيا حيث يتعاقب النهار والمساء، أما يوم القيامة فهو يوم بلا ليل وينتهي هذا التعاقب؛ ولهذا فإن آل فرعون يعرضون على النار كل صباح ومساء إلى أن يشاء الله وتقوم الساعة فيدخلون وقتها إلى أشد أنواع العذاب.

ونكتفي بهذه الآيات ونستعرض بعض الاعتراضات التي قد يظهر للبعض أنها تعارض وجود عذاب في القبر:

١- قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ [يس: ٥١-٥٢]، أشبه به قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝١٠٤﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤]، والآيات تصف حال المكذبين بالبعث حين يخرجون من قبورهم، ولكن هل ذكرت أنهم كانوا لا يُعذبون قبل بعثهم؟

لنعرف الجواب ذكر الله عز وجل مشهد مقارب للوفاة وهو (النوم) أو الوفاة الصغرى كما يسميها البعض فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ [الزمر: ٤٢]، والآن النائم هل لا يرى في منامه ماقد يشرح صدره، أو العكس ما قد يضيق به صدره ويؤلمه لدرجة أن تظهر عليه علامات ذلك ويتصبب عرقًا ويستيقظ مفزوعًا؟

إذن فالراقد أو النائم لم يمنعه مرقده من تعرضه لأمور تريحه أو أمور تزعجه، ونفس الأمر قد يحدث للمتوفى في قبره أو حتى غير قبره –لو مات غريقًا أو حريقًا– وآلت نفسه لبارئها فهذه النفس معرضة لأمور تسعدها أو أمور تعذبها إلى أن يشاء الله وتقوم الساعة وتبعث من هذا المرقد.

والاعتراض الثاني على عذاب القبر قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝١٨٥﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فالله عز وجل أخبرنا أنه سيوفينا أجورنا يوم القيامة وقوله الحق، ولكن هو أيضًا أخبرنا أنه يوفي الأجور (ويزيد من فضله) أو يزيد فوق العذاب عذابًا قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾ [فاطر: ٣٠]، ومن هذه الزيادة ما ذكرها من جزاء لمن

قتل في سبيل الله أنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وقال أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨]، وكما ذكرنا من العذاب فوق العذاب ما ذكر من عذاب في الدنيا في آيات أخرى أو عذاب قبل يوم القيامة.

وفي النهاية واجب المرء المؤمن بالله أن يعبده كما أمر، ويطيعه في أوامره ويتجنب ما يغضبه ونواهيه فمتى فعل هذا رضي عنه وأدهشه بعطاياه في الدنيا والآخرة ولم يذقه عذابه لا في القبر ولا في غيره، والله سبحانه له الخلق والأمر إن يشأ يعذب وإن يشأ يرحم، فالخلق خلقه والأمر أمره ولا إله غيره ونسأله أن يعافينا ويشملنا برحمته التي وسعت كل شيء.

* هذا والله تعالى أعلى وأعلم *

مسألة الإجماع السادسة

مركزية الآخرة مقدمة على الدنيا

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧].

نجد في كثير من أحاديث منكري السنة انهزامية واضحة تجاه التقدم العلمي في الدنيا، ويصرحون بهذا كثيرًا، ومن ثم يسقطون سبب الانهزامية في التمسك بالتراث الديني، ولا أدري ما علاقة العلماء وأقوالهم بالتقدم في العلوم الدنيوية، فلم نسمع أحدهم يقول كلامًا سلبيًا تجاه العلوم الدنيوية، ولا تجاه السعي نحو تقدم البلاد بما يعود به النفع على العباد، واحتساب الأجر عند الله عز وجل.

كما أن الدور الأساسي للعلماء والدعاة هو مد الجسور بين العباد وخالقهم فلا يغفلوا عن الدور الذي خلقهم من أجله، ولا يغفلوا عن شكر نعمه عليهم، ولا ينتهكوا حرماته فيوجبوا سخطه عليهم، وهذا هو الأهم عند رجال الدين، لأن الذنوب سبب هلاك الأمم كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦].

وما يهمنا هنا لفت الانتباه إلى أمر مهم، وهو أن الشرع قدّم مركزية الآخرة على مركزية الدنيا، لذا فمنكر السنة الذي يبدأ بحال الدنيا، ويجعل هذا الحال هو الأهم، وعلينا أن نلتفت له، وأن تخلفنا هو بسبب التمسك بالتراث...إلخ،كل هذا الكلام خاطئ تمامًا، فالدين يقدم الآخرة ومركزيتها، وهذا لا علاقة له بحال الدنيا ولا أن نهملها، ولكن الأهم شرعًا هو الإعداد للآخرة ولقاء الله، كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ

كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وهذا حتى لا يختلط الأمر عند البعض، فيجعل للدنيا أهمية مركزية، فالدنيا وإن كان المرء يثاب على السعي فيها متى احتسب الأجر عند الله، وأن سعيه هذا إرضاء لله كما قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٣٩-٤٢]، فالأهم هو أن يكون المرء معدًا للقاء الله {وأن إلى ربك المنتهى}؛ لذا الاهتمام كله للحياة الآخرة، والجزاء الحقيقي في الآخرة، والحياة الحقيقية في الآخرة.

الآن لنستعرض قليلًا الأدلة وتفنيدها..

أدلة منكري السنة على مركزية الدنيا:

يستند البعض على قوله تعالى الذي جاء في سورة هود على لسان نبي الله صالح ليثبت أن الله خلقنا لتعمير الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١].

والرد على مزاعمهم من طرق كثيرة منها:

١- الآية لم تذكر الاستعمار في الأرض كسبب للإنشاء، وإنما ذكرته من قبيل النعم التي أنعمها على بني آدم أن جعلهم يعمرون ويعيشون عليها، وهذا يستلزم وجود مقومات الحياة مسخرة لهم، أي أنها من باب تعريف نعم الله عليهم.

٢- كم من آيات ذكرت إهلاك أقوام عمروا وعاشوا، وكان لهم نصيب من الدنيا وزخرفها، ولكنهم لم يقم الله لهم وزنًا حين كفروا به، واستخلف غيرهم ليعبدوه وحده ولا يشركوا به، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩]،

وقال أيضًا: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٦﴾ [الأنعام: ٦]، وقال أيضًا: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ٣٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق: ٣٦-٣٧]؛ فالعبرة إذن بشيء واحد، وواحد فقط، ألا وهو تحقيق الهدف من الخلق **وهو عبادة الله**، وهل هؤلاء القوم حققوه أم حادوا عنه؟ فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧].

٣- كم من الآيات التي ذكرت مركزية الآخرة، وأن العمل يكون من أجل الثواب في الآخرة هو أسمى وأعظم؛ لأن وقتها من يجازي هو الله عز وجل بنفسه، ومن كذب بالحساب في الآخرة حبط عمله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾ [الأعراف: ١٤٧]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠]، وقال أيضًا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾ [التوبة: ٧٢].

٤- الآيات حكمت أنه لا وجه للمقارنة بين متاع في الدنيا ومتاع الآخرة، فقال تعالى في سورة الحديد: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ

وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢٠-٢١]، وقال في سورة القصص: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴿٦١﴾﴾ [القصص: ٦٠-٦١]، وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

قد يتسائل البعض: ومن عمل في الدنيا ونفع الناس ما جزاؤه؟

والرد على هؤلاء أن الله عز وجل بين أمرين مهمين في هذا الشأن:

الأول: من عمل عملًا ليس لوجه الله وليس لقاء الأجر من الله في الآخرة فهذا عمله عليه رد، وفي الآخرة الجزاء كما كان يظن (أنه ليس لقاء رضوان الله، فلن يرض عنه الله، ولن يجد إلا سخطه ونيرانه عياذًا بالله) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٧-٨]، وقال أيضًا في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢٦٤].

الأمر الثاني: هو عمل لأجل غاية في الدنيا والله أعطاه غايته التي سعى لها، ولكنه لم يرد الآخرة لذلك في الآخرة لا شيء له إلا النار عياذا بالله، فقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: ١٨]، وقال أيضًا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ

لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ [الشورى: ٢٠].

لذا ختاما عقيدتنا قائمة على أمر مهم، وهو أن شرط قبول العمل الأول هو الإيمان بالله وطلب الأجر من الله عز وجل، فلا يظن أحد أن من يعمل ولا يرجو الأجر من الله فإن الله سيكافئه، كيف هذا والرجل نفسه لم يطلب ذلك؟! لهذا قال تعالى: {وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} هو من ظلم نفسه حين عاش بنعم الله، وجاءته الرسالة من الله أن يحذر الآخرة وأن يعد للقاء الله، وهو من كذب هذه الرسالة.

* هذا والله تعالى أعلى وأعلم *

يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

التفسير الميسر

وإنما يعلمون ظواهر الدنيا وزخرفها، وهم عن أمور الآخرة وما ينفعهم فيها غافلون، لا يفكرون فيها.

أشهر الرواة في كتب الأحاديث

لعل الكثير حين يسمع حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم يتجاوز الإسناد وأسماء الرواة ويذهب مباشرة للمتن، وهو لا يدري أن هذه الأسماء في الإسناد بنفس أهمية المتن، وهي ما تأخذ الحكم الأول على الحديث أو الحكم الظاهري، وهي المفتاح للحكم على المتن أو الحكم الباطني للحديث.

والإسناد أيضا يساعد في التعرف على الأحاديث الموضوعة والمكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر في تذكرة الحفاظ (٢٧٣/١) أن الخليفة هارون الرشيد عندما أتي بأحد الزنادقة ليقتله، فقال الزنديق: أين أنت من ألف حديث وضعتها؟ فقال الرشيد: فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وابن المبارك ينخلانها ويخرجانها حرفاً حرفاً.

وقد يتعجب البعض كيف يعرف الحديث الموضوع بكل هذه الثقة أهل الحديث؟ والجواب يكمن في الجملة التي قالها هارون الرشيد نخل الحديث حرفاً حرفاً ، وهذا النخل يبدأ من أول الإسناد والبحث في الرواة، وهل حقا هم ثقات ولهم صحبة مع شيوخهم وسمعوا منهم أو أخذوا الحديث حقا بأي طريقة اتصال مقبولة، ثم البحث في المتن هل يوجد له شواهد ومتابعات من طرق رواة آخرين أم لا، وهذا ما ذكره الإمام مسلم في كتابه التمييز حين أراد أن يبين كيف يعرف الحديث الخطأ فقال: (أن يروي نفر من حفاظ الناس حديثاً عن مثل الزهري أو غيره من الأئمة بإسناد واحد و متن واحد، مجتمعون على روايته في الإسناد و المتن، لا يختلفون فيه في معنى، فيرويه آخر سواهم عمن حدث عنه النفر الذين وصفناهم بعينه، فيخالفهم في الإسناد أو يقلب المتن فيجعله بخلاف ما حكى من وصفنا من الحفاظ، فيعلم حينئذ أن الصحيح من الروايتين ما حدث الجماعة من الحفاظ، دون الواحد المنفرد و إن كان حافظاً، على هذا المذهب).

فهو هنا ذكر اللجوء للرواة الآخرين الذين يرون عن الشـــيخ الذي عليه مدار الحديث وخاصـــة إن كان مكثرا من الرواية وله تلاميذ كثر نشـــروا أحاديثه ورواياته، فينظر هل هذه الرواية كانت معروفة عندهم أم هي من تفرد هذا الراوي فلو كانت من تفرده أو فيها مخالفات في المتن كالقلب أو إدراج حينها يحكم بالخطأ على هذا التفرد ويرد ولا تقبل الرواية.

ولذلك معرفة الإسناد والرواة من أهم مفاتيح الحكم على الحديث واستخراج علله لأنها هي من تقود لجمع طرق الحديث.

قال الإمام علي بن المديني في كتابه العلل: نظرت فإذا الإسناد يدور على ستة: فلأهل المدينة بن شـــهاب الزهري، ولأهل مكة عمرو بن دينار، ولأهل البصـــرة قتادة بن دعامة الســـدوســـي ويحيى بن أبي كثير، ولأهل الكوفة أبو إســـحاق السبيعي وسليمان بن مهران(الأعمش).

الإمام علي بن المديني (وهو بالمناسـبة شـيخ الإمام البخاري ومن قال عنه ما اسـتصـغرت نفسـي عند أحد إلا عند علي بن المديني – أخرجه ابن عدي في كتابه "من روى عنهم البخاري في الصحيح" (ص١٥٥) ومن طريقه المقدسي في الأربعين على الطبقات (ص٢٦٧)، و أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ت بشـار (ج٢/ص٣٢٢) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (ج٥٢/ص٨٢)-

وعلي بن المديني بعد أن نظر لأغلب طرق الأحاديث الصـــحيحة في البلدان، وجد أنها تدور حول ستة أئمة، ووضـح أهل كل بلد يدور حديثهم حول أي إمام، ولنأخذ منهم واحداً كمثال، لنشرح كيف نتأكد من صحة الحديث وضبط الرواية.

بالمناسبة قام الشيخ أحمد السيد بعمل كتاب مختصر (تسهيل معرفة الأسانيد) يشرح ببساطة الطرق لهؤلاء الأئمة الستة وأشهر أصحابهم الذين كان لهم طول صحبة معهم وضبطوا رواياتهم، وأقتبس منه صورة لمشجر مختصر عن الإمام الزهري.

الإمام الزهري

لو نظرنا للإمام الزهري وما قيل عنه باختصار في كتب الرجال:

قال ابن سعد رحمه الله تعالى:

"قالوا: وكان الزّهريّ ثقة، كثير الحديث والعلم والرّواية، فقيها جامعا" انتهى من "الطبقات الكبرى" (٥/ ٣٥٦-٣٥٧).

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله تعالى:

"سمعت أبي يقول: الزهري أحب إلى من الأعمش، يحتج بحديثه، وأثبت أصحاب أنس الزهري.

وسئل أبو زرعة عن الزهري، وعمرو بن دينار، فقال: الزهري أحفظ الرجلين" انتهى من "الجرح والتعديل" (٧٤/٨).

وقال ابن حبان رحمه الله تعالى: "محمّد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب الزّهريّ القرشي، كنيته أبو بكر، رأى عشرة من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكان من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقا لمتون الأخبار، وكان فقيها فاضلا، روى عنه النّاس" انتهى من "الثقات" (٣٤٩/٥).

من مظاهر عنايته بالعلم في أيام طلبه: أنه **كان حريصًا على تدوين العلم وكتابته مع قوة حفظه** وكان لتدوينه ذلك أثرٌ كبير في مستقبله العلمي؛ يقول معمر عن صالح بن كيسان: "كنت أطلب العلم أنا والزهري، فقال: تعال نكتب السُّنن، قال: فكتبنا ما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: تعال نكتب ما جاء عن الصحابة، قال: فكتب ولم نكتب، فأنجح وضيَّعت"

(تهذيب التهذيب لابن حجر (٣٠/ ٤٤٨)

وكان "يدور على مشايخ الحديث ومعه ألواح يكتب عنهم فيها الحديث، ويكتب عنهم كل ما سمع منهم، حتى صار من أعلم الناس في زمانه، وقد احتاج أهل

عصره إليه" (البداية والنهاية لابن كثير (٩/ ٣٤١).

ولم يكن الإمام الزهري يكتب فقط، بل كان يكتب ويحفظ، ويكثر من تَكرار المحفوظ، وذلك وسيلة من وسائل تثبيت المحفوظات، وكان له هذا الموقف مع جاريته، فقد كان يرجع من عند عروة بن الزبير فيقول لجارية عنده فيها لُكنة: حدثنا عروة حدثنا فلان، ويسرد عليها ما سمعه منه، فتقول له الجارية: والله ما أدري ما تقول، فيقول لها: قد علمت أنك لا تنتفعي به، إنما أريد نفسي.

(البداية والنهاية لابن كثير (٩/ ٣٤١).

وحينما ساورت الشكوكُ بعضَهم في إتقانه وحفظه أجرى له اختبارًا حتى يتأكد من قوة حفظه التي شهر بها بين الناس، فيذكر أن هشاما بن عبد الملك سأل الزهري أن يكتب لبنيه شيئًا من حديثه، فأملى على كاتبه أربعمائة حديث، ثم خرج على أهل الحديث فحدَّثهم بها، ثم إن هشامًا قال للزهري: إن ذلك الكتاب ضاع، فقال: لا عليك، فأملي عليهم تلك الأحاديث، فأخرج هشام الكتاب الأول، فإذا هو لم يغادر حرفًا واحدًا، وإنما أراد هشام امتحان حفظه.

(البداية والنهاية لابن كثير ٩/٣٤٢)

وكان رحمه الله يهتم بالإسناد، قال لأهل الشام: مالي أرى أحاديثكم ليست لها أزمة ولا خضم، قال الوليد بن مسلم: فتمسك اصحابنا بالأسانيد من يومئذ (الذهبي في سير أعلام النبلاء ٥/٣٣٤)

ولشدة حفظه وحرصه على الإسناد، كان العلماء يعدون أحاديثه المرسلة التي لا يذكر فيها الإسناد كاملا أحاديثا ضعيفة، فمثله في قوة حفظه لا يمكن أن ينسى الإسناد المتصل، وإنما يترك سرد من يراه فيه ضعف أو قد يعيب الإسناد. وخرج البيهقي من طريق أبي قدامة السرخسي، قال: سمعت يحيى بن سعيد يقول: مرسل الزهري شر من مرسل غيره، لأنه حافظ، وكل ما يقدر أن يسمى سمي، وإنما يترك من لا يستجيز أن يسميه. (ص٥٣٥ – كتاب شرح علل

الترمذي) وفيها أيضا قال يحيى بن معين: مراسيل الزهري ليس بشيء.
وكان الزهري ممن أمرهم الخليفة عمر بن عبد العزيز بجمع السنة وتدوينها.
قال الزهري: أمرنا عمر بن عبد العزيز، بجمع السنن، فكتبناها دفتراً دفتراً، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً. (جامع بيان العلم وفضله. ١/١٥٥).
وكان عمر رحمه الله معجبا به أشد الإعجاب، إلى حد أن كتب إلى الافاق:" عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه" البداية والنهاية ٣٧٥/٩
وهو من أئمة التابعين أخذ الأحاديث مباشرة من بعض الصحابة أو من كبار التابعين:
١* عن الصحابي أنس بن مالك مباشرة (وأنس رضي الله عنه خدم رسول الله صلى الله في بيته وهو بن عشر سنوات) وهو من قال :
خدمتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم عشرَ سنينَ، فما قال لي أُفٍّ قطُّ ، وما قال لي لشيءٍ صنعتُه : لِمَ صنعتَه ، ولا لشيءٍ تركتُه : لِمَ تركتَه ، وكان رسولُ اللهِ من أحسنِ الناسِ خُلُقًا ، ولا مسستُ خَزًّا ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألينَ من كفِّ رسولِ اللهِ ، ولا شممتُ مِسكًا قط ولا عطرًا كان أطيبَ من عَرَقِ النبيِّ.
(أخرجه البخاري (٦٩١١،٣٥٦١) مفرقاً، ومسلم (٢٣٠٩، ٢٣٣٠) مفرقاً باختلاف يسير)
٢* ويروي عن صحابة آخرين بواسطة ومن أشهرهم: أبو هريرة وأم المؤمنين عائشة وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم أجمعين.

<u>رواية الزهري عن أبي هريرة رضي الله عنه</u>

يروى الزهري حديث أبي هريرة من طريق تابعين كبار مثل سعيد ابن المسيب، وأبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، والأعرج.

وأما سعيد بن المسيب: إمام التابعين، أحد فقهاء المدينة السبعة، كان قد سمع من عثمان بن عفان وعلي وصهيب ومحمد بن مسلمة، و**معظم روايته المسنَدة عن أبي هريرة، وكان زوج ابنته**، وسمع من أصحاب عمر وعثمان، وكان يقال: ليس أحد أعلم بكل ما قضى به عمر وعثمان منه؛ (الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٥ صـ ٩١).

قال سعيد بن المسيَّبِ: كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد؛ (الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٥ صـ ٩٠).

قال مالك بن أنس: كان عمر بن عبدالعزيز لا يقضي بقضاء حتى يسأل سعيد بن المسيَّبِ، فأرسل إليه إنسانًا فدعاه، فجاء حتى دخل، فقال عمر: أخطأ الرسول! إنما أرسلناه يسألك في مجلسك؛ (الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ صـ ٢٩١)

قال الإمام أحمد بن حنبل: مرسلات سعيد بن المسيَّبِ صحاح.

قال أحمد بن حنبل: سعيد بن المسيَّبِ أفضل التابعين؛ (البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٢ صـ ٤٧٣).

قال علي بن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علمًا منه، وإذا قال سعيد: مضتِ السنةُ، فحسبُك به، وهو عندي أجلُّ التابعين؛ (البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٢ صـ ٤٧٣).

قال أبو حاتم الرازي: ليس في التابعين أنبل منه، **وهو أثبتهم في أبي هريرة**؛ (البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٢ صـ ٤٧٤).

وعن معمر قال: سمعت الزهري يقول: مست ركبتي ركبة سعيد بن المسيب ثمان سنين.

ص٩ – كتاب من أعلام السلف ، وذكر في تهذيب الكمال للمزي ج٢٦ ص٤٣٢

رواية الزهري عن عائشة رضي الله عنها أكثر ما يروي الزهري عن عائشة رضي الله عنها من طريق ابن اختها أسماء، عروة بن الزبير، وهو أيضا أحد فقهاء المدينة السبعة.

وَقَال الليث بْن سعد، عَنْ جعفر بن ربيعة :قلت لعراك بن مالك: من أفقه أهل المدينة؟ قال: أما أعلمهم بقضايا رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وقضايا أبي بكر، وعُمَر، وعثمان، وأفقههم فقها، وأعلمهم بما مضى من أمر الناس فسَعِيد بن المُسَيَّب، وأما أغزرهم حديثا فعروة بن الزبير ولا تشأ أن تفجر من عُبَيد الله بن عَبد اللَّهِ بحرا إلا فجرته. قال عراك :وأعلمهم جميعا عندي مُحَمَّد بن شهاب، لأنه جمع علمهم إلى علمه(. تهذيب الكمال للمزي ج٢٦ ص ٤٣٤).

قال قبيصة بن ذؤيب: كان عروةُ يغلبنا بدخوله على عائشة، وكانتْ عائشةُ أعلمَ الناس، وكان عروةُ أعلمَ الناس بحديث عائشة؛ "تهذيب التهذيب" (٧/ ١٦٤).

وصار عروةُ مِن أثبت الناس في عائشة، حتى قال: لقدْ رأيتُني قبل موْت عائشة بأربع حِجج، أو خمْس حجج، وأنا أقول: "لو ماتتِ اليومَ ما ندمتُ على حديث عندَها إلا وقد وَعَيْتُه"؛ "سير أعلام النبلاء" (٤/ ٤٢٤).

رواية الزهري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه

أكثر أحاديث الزهري عن ابن عمر أخذها من ابنه سالم أو من مولاه نافع.

روى ابن منظور في مختصر تاريخ دمشق

عن نافع قال: لقد سافرت مع ابن عمر بضعاً وثلاثين بين حجة وعمرة.

وعن نافع أنه قال: من يعذرني من زهريكم هذا، يعني ابن شهاب، يأتيني فأحدثه عن ابن عمر، ثم يذهب إلى سالم بن عبد الله، فيقول: هل سمعت هذا من ابن عمر؟ فيقول له: نعم، فيحدث عن سالم، والسياق من عندي.

وقال ابن أبي خيثمة: حدثنا أحمد بن حنبل قال: حدثنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر قال: قيل للزهري: زعموا أنك لا تحدث عن الموالي، قال: إني لأحدث

عنهم، ولكن إذا وجدت أبناء المهاجرين والأنصـــار أتكئ عليهم، فما أصـــنع بغيرهم؟ ! .

"تاريخ ابن أبي خيثمة" (٢٧٠٠).

<u>رواية الزهري عن عبد الله بن عباس</u>

أكثر روايات الزهري عن ابن عباس من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة السبعة.

جاء في تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام – للذهبي :

قَالَ مَالِكٌ: كَانَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ كَثِيرَ الْعِلْمِ، وَكَانَ ابْنُ شِـــهَابٍ يَخْدُمُهُ وَيَصْحَبُهُ، حَتَّى أَنْ كَانَ لينزغ لَهُ الْمَاءَ.

وَسُـــئِلَ عِرَاكُ بْنُ مَالِكٍ: مَنْ أَفْقَهُ مَنْ رَأَيْتَ؟ قَالَ: أَعْلَمُهُمْ سَـــعِيدُ بْنُ الْمُسَـــيِّبِ، وَأَغْزَرُهُمْ فِي الْحَدِيثِ عُرْوَةُ، وَلا تَشَاءُ أَنْ تَفْجُرَ مِنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بَحْرًا إِلا فَجَرْتَهُ.

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: أَدْرَكْتُ أَرْبَعَةَ بُحُورٍ، فَذَكَرَ منهم عبيد الله. قال: وسمعت شيئا كثيرا مِنَ الْعِلْمِ فَظَنَنْتُ أَنِّي اكْتَفَيْتُ، حَتَّى لَقِيتَ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ: لِأَنْ يَكُونَ لِي مجلسٌ مِنْ عُبَيْدِ اللَّهِ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الدنيا.

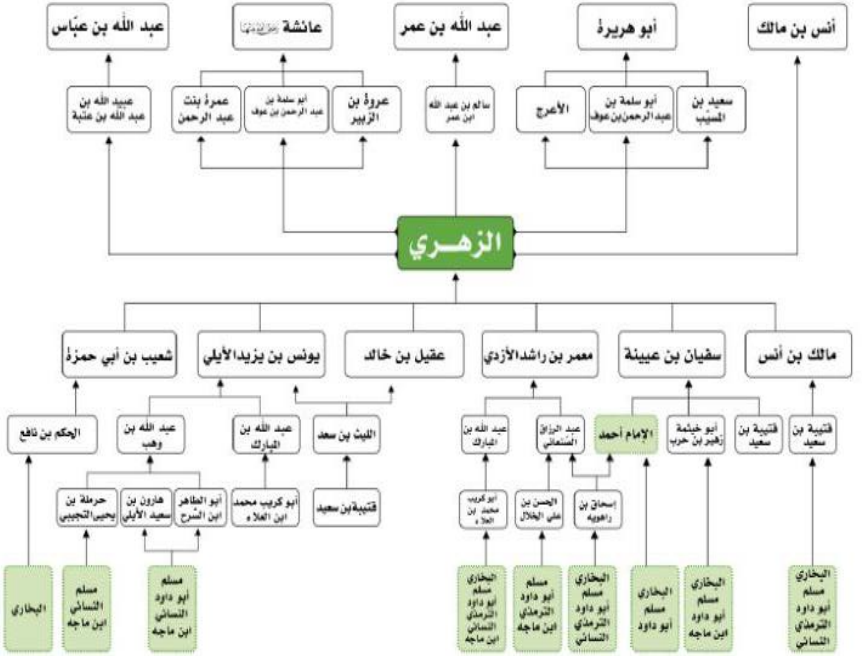

هذا الشجر بني على الاختصار لا على الاستقصاء، فالرواة الموصوفون بروايتهم عن شيخ معيّن في الشجر لا يعني عدم روايتهم عن شيخ آخر في نفس الشجر

خاتمة

لو جاز لي النصح، فلا أجد أنفع للمرء من وصية الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]، فسبب كل البلايا على المرء خوضه فيما ليس له به علم، فكان كما قال تعالى: {بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ}، واحذر من ثلاثة أمور تهلك أصحابها:

الأول: توهم العلم والمعرفة وأنت لا تملك إلا قشورها.

والثاني: أن تخطئ وجهتك التي تستقي منها علمك، فإن هذا العلم دين فانظر ممن تأخذ دينك.

الثالث: أن تسعى للعلم لتكون ذا سبق ويشار لك بالبنان، فيكون همك كلام الناس وليس معرفة الحق، فأول ما عصي به الله عز وجل هو الكبر، وكان إبليس أول من استكبر، وسل الله دومًا الهداية {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}.

ونسأل الله العفو والعافية.

تم بحمد الله.

المراجع

- المصحف الشريف (طباعة مجمع الملك فهد بالمدينة المنورة).
- تفسير الطبري – تفسير ابن كثير – التفسير الميسر.
- صحيح البخاري (طباعة دار الفجر الطبعة الثانية ٢٠١٣ ترتيب وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي).
- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية.
- تحرير علوم الحديث لعبد الله الجديع.
- الفكر المنهجي عند المحدثين للدكتور همام عبد الرحيم سعيد.
- إعلاء البخاري (إعداد عبد القادر بن محمد جلال، وتقديم د.علي بن محمد العمران).
- أفي السنة شك؟ للشيخ أحمد بن يوسف السيد.
- المنهج النقدي عند المحدثين للدكتور/ عبدالرحمن السلمي.
- الإسلام سؤال وجواب (موقع الكتروني). https://islamqa.info/ar

رسالة الكتاب

يظن منكر السنة أنه ينكر أقوالًا وأفعالًا للنبي ﷺ، ولا يدري أنه ينكر كتابَ الله عز وجل قبل أي شيء، وهذا ما حاولت توضيحه في صفحات هذا الكتاب سائلًا المولى سبحانه أن ينفع به، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

المؤلف

التعريف بالكاتب

هيثم زكريا محمد محمد أبو طالب.

طبيب أسنان حاصل على بكالوريوس طب الأسنان، وزمالة مصرية في طب الأسنان، وعضوية كلية الجراحين الملكية بأيرلندا.

وأما عن دراسته للعلوم الشرعية، فقد درس في برامج:

- صناعة المحاور في دفعته السابعة.
- البناء المنهجي في دفعته الثانية.
- أكاديمية الحديث الالكترونية في دفعتها الثالثة.

المبدعون العرب للنشر والتوزيع والمالتيميديا

جمهورية مصر العربية/ مدينة الجيزة

٠١٠٢١١٩١٨٠٩ / ٠٠٩٧١٥٠٩٢٦٣٥٤٥

almubadieun@gmail.com